سلسلة الأعمال المجهولة

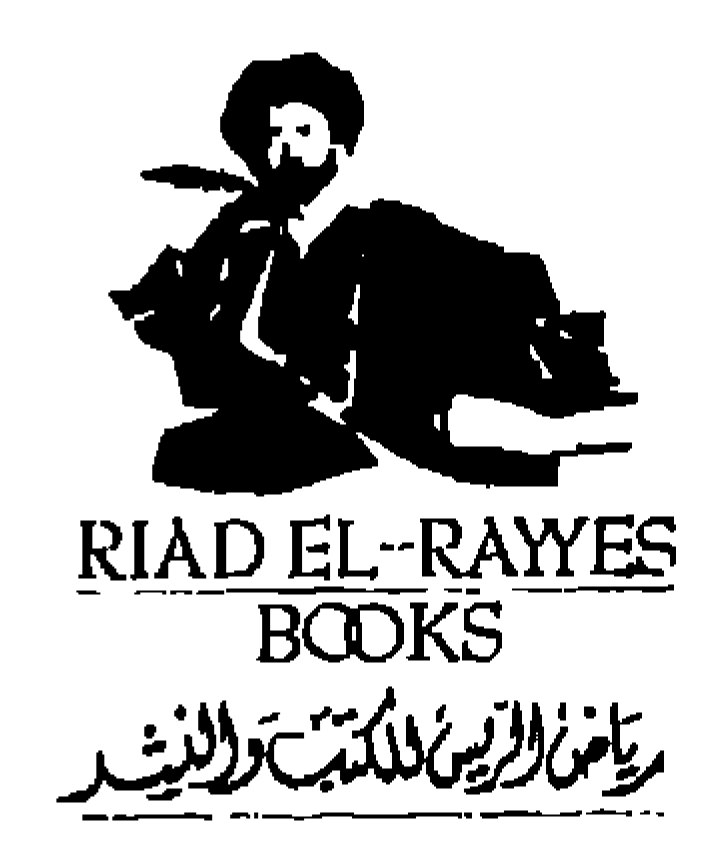
محمد عبده

علي شلش

سلسلة الأعمال المجهولة

محمد عبده

تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش



RIAD EL-RAYYES BOOKS

رياض الريس للكتب والنشر

4, Sloane Street, London SW1X9LA

THE UNKNOWN WORKS OF:

MOHAMMAD ABDO

COMPILED AND EDITED

BY

DR. ALI SHALASH

First Published In Great Britain In 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

ISBN 1 869844 66 1

British Library Cataloguing in Publication Data

Abdo, Mohammad
The unknown works of Mohammad Abdo.
1. Islam and politics——Middle East
2. Middle East——Politics and government
I. Title II. Shalash, Ali
297'.1977'0956 BP173.7
ISBN 1-869844-66-1

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd, London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة

لعله أصبح من الواضح ـ بعد محاولتنا جمع وتحقيق المجهول من تراث جمال الدين الافغاني ـ ان تراث تلميذه محمد عبده لا يقل أهمية ، إن لم يكن اهم من ناحية التاصيل والاجتهاد في فهم القديم والجديد ، واعمق من ناحية الكم .

وقد استطاع رجل واحد ـ كما رأينا ـ هو محمد رشيد رضا أن يحفظ الكثير من تراث الرجلين معا ، في أعداد مجلته « المنار » ، ثم في ثنايا كتابه الضخم «تاريخ الأستاذ الامام». ومهما كانت اخطاؤه في جمع تراث أستاذيه وحفظه، ومهما كانت وسائله في الجمع والحفظ وتغليبه للجانب الأخلاقي على أمانة العلم ، فقد أتاح لنا خطوة مهمة في سبيل التحقيق العلمي لتراث الرجلين . وإذا كان عمله هذا قد خدم تراث محمد عبده اكثر مما خدم تراث الأفغاني ، فلا شك أن عامل القرب والمعاصرة كان له الدور الأكبر في ذلك ، لأن رضا لم ير الأفغاني ، ولم يعاصر سنواته الثماني في مصر ، ولم يتتبع خطاه ، ولكنه عاشر محمد عبده ، وعاصره ، وتتبع خطاه ، منذ هاجر هو نفسه إلى مصر عام ١٨٩٨ إلى وفاة محمد عبده عام ١٩٠٥ . وخلال تلك السنوات السبع التي عاشها بالقرب من محمد عبده ، وهو في قمة نضجه الفكري ، استطاع رشيد رضا أن يعرف الكثير ، وأن يجمع الكثير أيضا عن الأفغاني وتلميذه ، وإن كان قد حجب عنا الكثير أيضا لمجرد إحساسه الأخلاقي بأن ليس كل ما يعرف يقال أو ينشر .

منذ عام ١٩٣١ الذي صدر فيه كتاب « تاريخ الأستاذ الإمام » لم يتصد أحد لجمع تراث محمد عبده ، حتى جاء محمد عمارة فاصدر عام ١٩٧٢ « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » . وقد صنع عمارة ذلك بعد تجربة سابقة في جمع تراث الأفغاني . وإذا كان جمعه لتراث الأفغاني قد اقتصر على المشهور والمتواتر ، فقد كان جمعه لتراث محمد عبده أشمل وأوسع . ويرجع ذلك ، في الأساس ، إلى يسر عملية الجمع بفعل الجهد الذي بذله رشيد رضا من قبل .

وإذا كان محمد عبده يتشابه كثيرا مع أستاذه في تنقله بين عدد من البلدان ، وتقلبه في الفكر والحياة ، والسياسة ، فهو يختلف عنه كثيرا في غزارة انتاجه ؛

وهدوء نظرته إلى الحياة والبشر ، ويأسه من السياسة ، وتشبثه بالإصلاح والتغيير عن طريق التربية والتعليم . وكان من نتيجة غزارة إنتاج محمد عبده أن بلغت أعماله الكاملة ـ على يد عمارة ـ خمسة مجلدات ضخمة .

ماذا فعل الدكتور عمارة إذن بتراث محمد عبده بعد أن جمع منه رشيد رضا الكثير ؟

إذا كان أول ما يطالعنا في جمع الدكتور عمارة وتحقيقه لتراث الافغاني هو قلة المصادر ، وضعف بعضها من جهة الاعتماد على المشهور والمتواتر ، فهذا نفسه أول ما يطالعنا في جمعه وتحقيقه لتراث محمد عبده ، وبخاصة في الجزء الأول الذي يعد أكبر أجزاء المجموعة . ومع أن المحقق بذل جهدا كبيرا في عمله ، وأعاد نسبة بعض الأعمال المنسوبة لعبده إلى الأفغاني ، مما سبق أن أشرنا إليه ، ومع أنه ايضا حاول أن يجمع التراث الضخم الذي خلفه محمد عبده من مظانه العديدة ، فقد جانبه التوفيق الى حد كبير في الجزء الأول بصفة خاصة الذي ضم الكتابات السياسية .

وقبل أن نتوقف عند هذا الجزء يحسن أن نتوقف قليلا عند قضية خطيرة أثارها المحقق حول علاقة محمد عبده الوثيقة بكتاب « تحرير المرأة » الذي ألفه قاسم أمين ونشره في القاهرة سنة ١٨٩٩ . يقول :

« والرأي الذي أؤمن به ، والذي نبع من الدراسة لهذه القضية ، هو أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، وأن في هذا الكتاب عدة فصول كتبها الأستاذ الإمام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ، ثم صاغ الأستاذ الامام الكتاب صياغته النهائية . بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين » .[1]

وقد ساق الدكتور عمارة عددا من القرائن التي تسند حكمه هذا ، وتتلخص في أن نشر الكتب والمقالات والأبحاث في ذلك العصر شاع فيه التخفي وراء أسماء الغير أو الأسماء المستعارة ، وأن قاسم أمين حاول الاستعانة في تأليف كتابه بأحمد شفيق (باشا) ، ولكنه اعتذر لكثرة مشاغله ويقينه بأن الأفكار لم تتهيأ لقبول مثل هذه الدعوة على حد تعبيره ، وأن درية شفيق (ابنة أحمد شفيق) صرحت في كتابها « تطور النهضة النسائية في مصر » الذي ألفته مع إبراهيم عبده بأن محمد عبده شارك قاسم أمين في هذا العمل ، فاضطلع الأول بالناحية الدينية والثاني بالناحية الاجتماعية ، وأن الكتاب جاء في النهاية من عمل الاثنين .

القضية على هذا النحو ليست جديدة . فقد أثارها بعض الذين ترددوا على صالون الأميرة نازلي فاضل في العقد الأخير من القرن الماضي ، مثل فارس نمر محرر « المقطم » وداود بركات محرر « الاهرام » . ولكن الدكتور عمارة صَعَّد

الموقف إلى درجة القطع بمشاركة محمد عبده في تاليف كتاب « تحرير المراة » وصياغته للكتاب في مجموعه .

اما مشاركة محمد عبده في الكتاب ببضعة فصول تمس الجانب الديني في الموضوع ، فامر من قبيل المعاونة لصاحبه وتلميذه قاسم امين . وليس من العيب ان يطلب منه قاسم ايضا قراءة الكتاب كله في النهاية ، ولا أن يسترشد به في الرأي والصياغة . فهذا كله أمر مقبول وعادي .

واما صياغة محمد عبده للكتاب في مجموعه فهذا مما يأباه الحق ، لأن قاسم امين لم يكن ـ كما يظهر من كتابه الثاني غير المشكوك فيه ـ كاتبا ضعيف الاسلوب رث العبارة . ولم يكن من النوع الذي يقبل أن يضع اسمه على كتاب ليست له فيه ناقة ولا جمل . فقد كان الرجل قاضيا شهد له أقرانه ومعاصروه بالنزاهة والأمانة .

وإذا كان محمد عبده قد قدم العون لتلميذه وصاحبه قاسم أمين فلا يزيد هذا العون احدهما وينقص الآخر . وليست القرائن التي ساقها الدكتور عمارة من القوة بحيث ترجح كفة الحكم الذي بناه عليها . وإذا كان بعض فقرات الكتاب ينم عن اسلوب محمد عبده ، فهذا ليس قرينة على المشاركة العمدية في التاليف بمقدار ما هو قرينة على المعاونة بالمادة المتخصصة التي لا تنقص قدر قاسم امين باحثا او كاتبا . ولا نستطيع ان نرتب على هذه القرينة حكما قاطعا بالمشاركة في التاليف .

نعود إلى الجزء الأول من الاعمال الكاملة لمحمد عبده الذي ضم كتاباته السياسية . ونلاحظ على هذا الجزء ـ بصفة خاصة ـ ثلاث نقائص أساسية : إحداها تتعلق بطريقة التعامل مع النصوص ، والأخرى تتعلق بتحقيقها ، والأخيرة تتعلق بإغفال الكثير منها .

١ ـ التعامل مع النصوص

لم يتعامل المحقق مع النصوص المنسوبة لمحمد عبده بالأمانة المطلوبة في مثل هذه الأحوال . فقد جارى محمد رشيد رضا في الحذف من بعض النصوص . ومن ذلك رسالةمحمد عبده الى الافغاني التي سبق ان اشرنا اليها .[٢] وهذه الرسالة سبق أن حذف منها رضا الكثير من العبارات التي ظن انها تسىء إلى كاتبها او بعض من اشار إليهم فيها . ثم جاء محمد عمارة فحذف منها بعض العبارات دون ان يشير الى ذلك ، ولاسيما الأسطر الثلاثة الأولى التي جاءت في نسخة رضا .[٣]

وقد طبق المحقق هذه الطريقة غير الأمينة في تعامله مع النصوص على كثير من كتابات محمد عبده المنقولة عن الانجليزية ، مثل رسالة محمد عبده إلى بلنت في الدفاع عن حكومة الثورة العرابية . ومع أن المحقق قد نقل هذه

الرسالة من ترجمة سبق نشرها ، فقد كان الواجب العلمي في التحقيق يقتضي منه الرجوع إلى الاصل الانجليزي .

٢ ـ تحقيق النصوص

بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله المحقق في النصوص التي جمعها فقد فاته الكثير في الوقت نفسه . ويتصل بهذا الكثير ما أورده منسوبا لمحمد عبده مثل مقال « الشورى والاستبداد » وكان رشيد رضا قد سبق أن نسب هذا المقال لعبده في الطبعة الأولى من الجزء الثاني من كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » ثم عاد في الطبعة الثانية من ذلك الجزء فحذف المقال ، وذكر أن سعد زغلول اخبره بانه له ، وقد نشره بغير توقيع في صحيفة « الوقائع »[٤]ومع ذلك قطع المحقق ـ لاسباب غير مقنعة ـ بأن المقال لعبده لا لسعد زغلول .[٥] والصواب انه للأخير . وقد سبق أن نشر سعد زغلول عددا آخر من المقالات قبل عمله في « الوقائع » مع محمد عبده ، ومن أهمها مقال بعنوان « علة الحرية » الذي نشرته صحيفة « مصر » في فبراير ١٨٧٩[٦] . وفيه ـ كما في غيره ـ ما يدل على أن كاتبه هو نفسه كاتب مقال « الشورى والاستبداد »

ويتصل بهذا ايضا « برنامج الحزب الوطني » الذي اورده المحقق منسوبا لمحمد عبده نقلا عن الترجمة العربية لكتاب « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر » ولا يمكن أن ننسب هذا البرنامج لعبده وحده . فقد نقل المحقق عبارة مؤلف الكتاب التي جاء فيها : « وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيي في الضابط الفلاح ماحملني على الذهاب في الحال لصديقي الشيخ محمد عبده لأفضى إليه بحقيقة هذا التاثير . ثم اقترحت وضع برنامج بما اخبرني عرابي به . ومن ثم وضعت انا والشيخ محمد عبده وآخرون وصابونجي منشورا يتضمن آراء الحزب الوطني بكل دقة . وقد اخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور إلى محمود سامي الذي كان وزيرا للحرب وضمن موافقته عليه . وكذلك أطلع عرابي على المنشور ووافق عليه »[٧]

وإذا عدنا إلى الأصل الانجليزي للكتاب المذكور وجدنا شيئا من الاختلاف في التعبير لم يفطن إليه المترجم . فقد روى بلنت انه خرج من لقائه الاول مع عرابي في القاهرة سنة ١٨٨١ متاثرا بحواره معه ، حتى انه ذهب إلى صديقه محمد عبده ، واقترح عليه تسجيل ماسمعه من عرابي في برنامج او بيان لإرساله إلى جلادستون رئيس الوزراء الانجليزي في ذلك الوقت . ولما وافق إدوارد ماليت ـ القنصل الانجليزي وقتها ـ على فكرة البرنامج اسرع بلنت بإخراجها إلى حيز الوجود . وفي ذلك يقول :

« وبناء على ذلك قمت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وآخرين من الزعماء المدنيين باعداد بيان امليناه على صابونجي ، وضمناه موجزا لآراء الحزب الوطني . ثم أخذه محمد عبده إلى محمود باشا سامي الذي عين وزيرا للحربية

مرة اخرى ، وحصل على موافقته . كما عرضه على عرابي ووافق عليه »[٨]

ومن الواضح في هذا النص وترجمته غير الدقيقة التي نقل منها المحقق ان البرنامج لم يكتبه محمد عبده ، وإنما شارك في صياغته فحسب ، وان الافكار والآراء الواردة فيه لا يمكن نسبتها إلى محمد عبده ، وإنما يمكن نسبتها إلى عرابي والزعماء المدنيين الذين اشار اليهم بلنت ، ومنهم محمد عبده إذا شئنا . وليس لهذا البرنامج أصل عربي محفوظ ، وإن كانت عبارة بلنت تشير إلى ان سكرتيره ـ في تلك الرحلة ـ الصحفي الشامي المغترب في لندن لويس صابونجي قد سجل البرنامج بالعربية اولا ثم ترجمه إلى الانجليزية ونقحه بلنت حتى خرج على صورته التي نشره بها في كتابه .

يتصل بتحقيق النصوص ايضا ما اورده المحقق منقولاً عن الترجمات العربية للمقتطفات التي كتبها بلنت عن محمد عبده . وكثير من هذه المقتطفات جاء في يوميات بلنت بجزئيها ، ولكن ترجمتها العربية لم تكن امينة . وكان من واجب المحقق الرجوع إلى الأصل الانجليزي ، فضلا عن انه عامل النصوص هنا معاملته لنصوص الأفغاني التي سبق ان نقلها من كتاب « خاطرات السيد جمال الدين الافغاني » وعزلها عن السياق الذى قيلت فيه . ومن الواضح أن بلنت لم يكن يسجل يومياته اثناء زيارات محمد عبده المتكررة له في الفترة من ١٨٨٩ الى ١٩٠٤ وانما كان يسجلها بعد انتهاء تلك الزيارات بالطبع . ومعنى هذا ان تسجيل اقوال محمد عبده وأحاديثه لم يكن امينا كل الأمانة ، وهذا امر طبيعي يعتمد على الذاكرة لا على آلات التسجيل التي لم تكن قد اخترعت بعد .

ومن امثلة هذه النصوص المقتطفة من يوميات بلنت نكتفي بنموذج واحد .

يقول المحقق نقلا عن الترجمة العربية غير الدقيقة تحت عنوان « رياض ونوبار » :

* إن رياض باشا ، برغم كونه مستبدا ، رجل شريف ، وهو افضل من تجران وبطرس وارتين . لأن هؤلاء كلهم مسيحيون لا يريدون خيرا بنشر روح التعليم الاسلامي . ولعله ينجح في جعل الخديو يستعين به وبطبقة من الشبان المسلمين المتعلمين ، ويقصي عنه الأرمن والمسيحيين .

* إن الياس قد تغلب على شعور الحزب الوطني بسبب استقالة رياض باشا وعودة نوبار باشا الى الحكم ، وذلك لأن نوبار يمثل سيادة رجال المال والمضاربين الذين سيتمتعون في عهده بالرخاء والرفاهية ، إذ سيحكم البلاد فريق من الأجانب النازحين من كل صوب[٩] .

لقد استخرج المحقق هاتين الفقرتين من يوميتين مختلفتين في الأصل الانجليزي . وهذه هي ترجمتهما الحرفية :

٢٤ فبراير ١٨٩٣

جاء الشيخ محمد عبده على الغداء ... وكنت متشوقا لسماع رايه . إنه يؤيد

رياض تاييدا واضحا . ويقول إنه رجل يعتمد عليه على خلاف تيجران (باشا وكيل الخارجية الأرمني) أو بطرس غالي باشا (الوزير في ذلك الوقت) فتيجران وأرتين (نوبار باشا رئيس الوزراء) والمسيحيون عموما يبذلون كل ما في وسعهم للقضاء على التربية الاسلامية . اما رياض فهو مستبد ولكنه شريف ... وهو (محمد عبده) سعيد جدا لأنني ساقابل الخديو ويريدني أن أركز على إفهامه ضرورة التعاون مع رياض ، والاستعانة بشباب المسلمين ، لا بالأرمن ولا بالشوام ، ومراعاة الدستور . وقال : نحن لا يهمنا أن يبقى الانجليز عاما أو عامين ، أو خمسة ، ما داموا لن يبقوا إلى الأبد . ووجودهم حاليا خير للبلد حتى يختمر حزب الفلاح .

١٥ ابريل ١٨٩٤

قضى محمد عبده اليوم معنا . ويقول إن الحزب الوطني أصابه الياس نتيجة استقالة رياض . ومازال أكثر ياسا بسبب عودة نوبار إلى الحكم ، لأن نوبار يعني عهد جامعي المال والمضاربين وحكم مصر بالأوربيين والشوام والغرباء من كل أرض .

سنغض النظر هنا عما بين اليوميتين من فارق زمني يزيد على سنة كاملة . ولكننا لا نستطيع أن نغض النظر عن هذا التعامل غير العلمي مع النصوص . فالتحقيق العلمي يعني الدقة والامانة في النقل والتوثيق ، وهذا ما يفتقر إليه النصان اللذان ادمجهما المحقق في نص واحد ، ووضع لهما عنواناً مشتركا ، ثم اقتطع الفقرة الأخيرة من اليومية الأولى ووضعها في مكان آخر بعد ذلك دون سبب مقنع[١١] . وجعل من هذا كله مبدأ عاما سار عليه في تعامله مع بقية النصوص .

٣ ـ إغفال النصوص

من الواضح أن المحقق لم يطلع على الأصل الانجليزي ، واكتفى بترجماته المتناثرة . ومن الواضح ايضا أن المحقق لم يتنبه إلى العلاقة الوثيقة التي ربطت بين محمد عبده وويلفرد بلنت ، وجعلت الأخير مرجعا لا غنى عنه في الكتابة عن حياة محمد عبده وفكره . واذا كان بلنت قد اشتهر عندنا بكتاب واحد هو « التاريخ السرِّي للاحتلال الانجليزي لمصر » الذي تردد فيه اسم محمد عبده كثيرا ، فله كتب أخرى لا تقل أهمية عن هذا الكتاب ، وهي على التوالي : جوردون في الخرطوم ، يومياتي (جزآن) . وفي هذه الكتب الثلاثة تردد اسم محمد عبده أكثر مما تردد في الكتاب الآخر . بل تضمن كتاب « جوردون في الخرطوم » عددا مهما من الرسائل والمذكرات التي كتبها محمد عبده لصاحبه حول الوضع في مصر ابتداء من الثورة العرابية حتى الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، فضلا عن الاحاديث الكثيرة التي

سجلها بلنت لصديقه في يومياته بجزئيها . ومعنى هذا كله ان المحقق اغفل قدرا كبيرا مهما من النصوص الخاصة بمحمد عبده ، وهو قدر يصل إلى تشكيل مجلد مستقل .

وبالاضافة الى النصوص التي سجلها بلنت لمحمد عبده توجد بعض النصوص الاخرى التي كشفت عنها أوراق الافغاني بعد تحقيقها ونشرها في إيران سنة ١٩٦٣ . ومن هذه النصوص نص رسالتين بعث بهما محمد عبده إلى استاذه من بيروت سنة ١٨٨٣ ونص رسالة ثالثة - منقولة الى الفارسية - بعث بها عبده من تونس سنة ١٨٨٤ . واحد هذه النصوص يشكل اصل المسودة التي نشرها محمد رشيد رضا بعد الحذف .

يتبين لنا بعد هذا كله ان تراث محمد عبده المجهول ليس محدودا ، ولا قليل الاهمية . وهذا ما حاولنا ان نعالجه في هذ الصفحات التي لا نستطيع ان نزعم انها جمعت فاوفت . فلا شك أن هناك نصوصا اخرى لمحمد عبده تائهة - بتوقيعه او بغير توقيعه - في صحف عصره او خزائن ورثة اصدقائه . وربما يكشف المستقبل عن بعضها ، ولا سيما رسائله الى زملائه واصدقائه ومريديه . وقد احسست بذلك حين وقعت على تلك الرسالة القصيرة الطريفة التي كتبها لحفني ناصف ونشرتها مجلة « الهلال » . فهل من المعقول ان يكتب محمد عبده رسالة واحدة يتيمة لحفني ناصف الذي ربطته به علاقة قوية ، ولا سيما اثناء عمل الاخير بمدينة قنا ، بعيدا عن القاهرة ؟ لا شك ان هناك رسائل غيرها ، ولكن اين السبيل اليها ؟

وهذه الاعمال المجهولة التي نقدمها هنا لمحمد عبده منشورة كلها في صحف او كتب . وكلها - عدا الذكريات والأحاديث - ظهرت بتوقيعه الصريح ، باستثناء مقالتين نميل إلى نسبتهما إليه . وهي في مجموعها تلقي ضوءا جديدا على تفكير الرجل ومواقفه واعماله ، ولكنها لا تغير كثيرا من نظرتنا للمعلوم من هذا التفكير ، وتلك المواقف والاعمال . ومع ذلك فرايه في جريدة « ابو نظارة » وصاحبها يعقوب صنوع يغير - على نحو جذري - ما هو معلوم عن صداقتهما الوطيدة في مصر ، قبل رحيلهما وتجاورهما معا في باريس . ورسالته الأولى لأستاذه الأفغاني تكشف - بما لا يدع مجالاً للشك - حقيقة ارتباطه بالصوفية في شبابه ، وتاثير مصطلحاتها عليه ، وإخضاعها لشيخه ، ومدى ما عاد عليه من هذا كله . ورسالته لحفني ناصف تكشف ايضا جانبا غير معلوم في شخصه وكتاباته ، ويتمثل في الدعابة والفكاهة ، وهي دعابة رقيقة غير غليظة كدعابة معاصريه مثل ابراهيم المويلحي او علي الليثي . وذكريات المستشرق الانجليزي ويلفرد بلنت عنه ، واحاديثه معه ، تكشف مدى إقبال محمد عبده على اصدقائه ، حتى لو كانوا على غير دينه ، وهكذا .

غير أن أهم ما وجدناه في هذه الاعمال المجهولة هو انها ـ في النهاية ـ لا غنى عنها في دراسة محمد عبده ، وعصره ، ورجاله .

علي شلش
لندن ـ ١٩٨٦

هوامش

١/ محمد عمارة : الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥٢

٢/ تاريخ الأستاذ الامام ، ج ٢ ، ص ص ٥٩٩ ، ٦٠٣

٣/ محمد عمارة ، مصدر سابق ، ص ٥٧٥

٤/ محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ، ط ٢ ، ص ١٩٧

٥/ محمد عمارة ، مصدر سابق ، ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

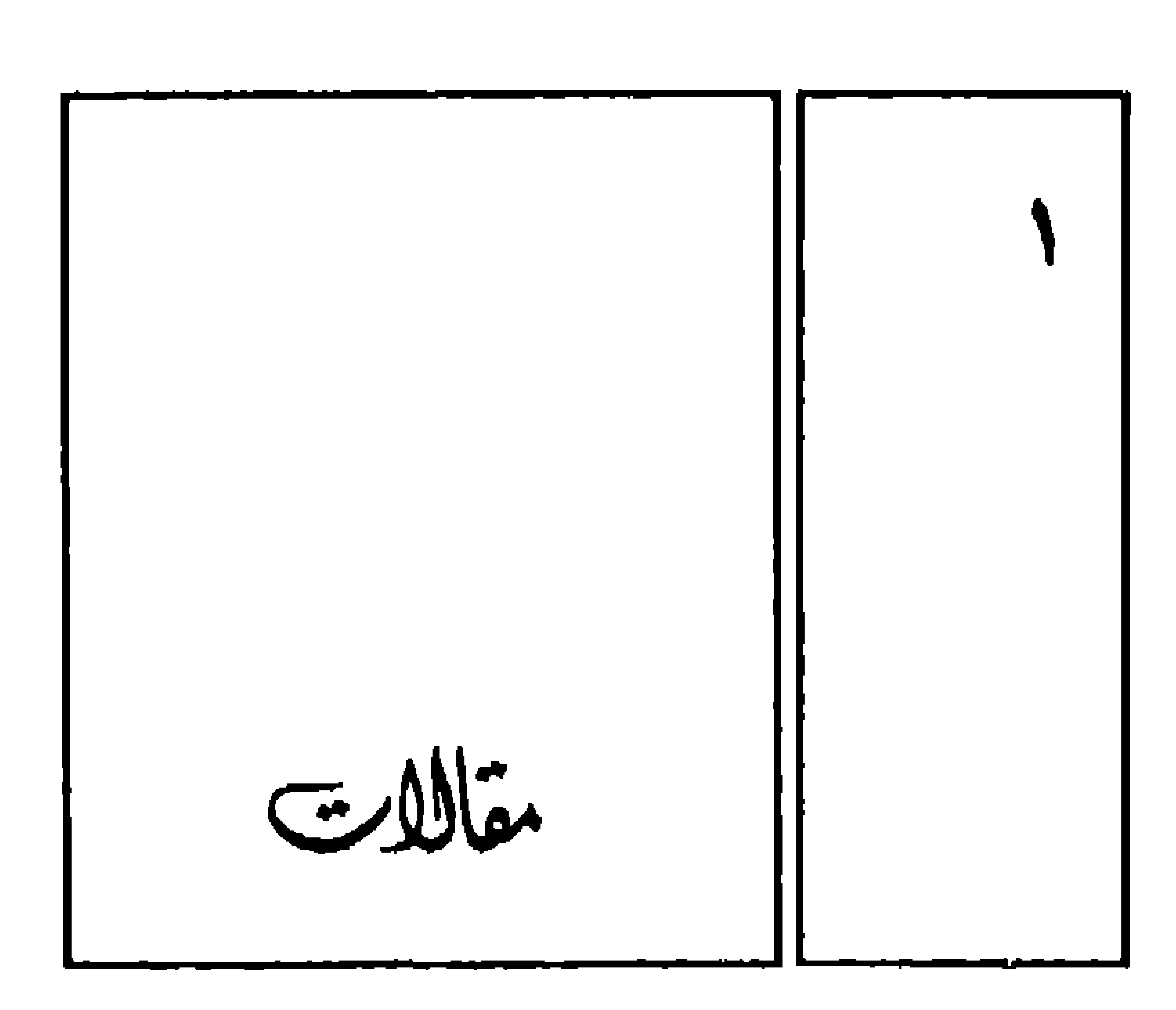
٦/ مصر ، عدد ٣٢ في ٧ فبراير ١٨٧٩ ص ٣

٧/ محمد عمارة : مصدر سابق ، هامش ص ٣٦٧

٨/ W.S. Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt , 2nd Edition , P173

٩/ محمد عمارة ، مصدر سابق ، ص ٦٩٤

١٠/ المصدر نفسه ، ص ٦٩٦


١
مقالات

جريدة « أبو نظارة »

[لم يكتب محمد عبده مقالاً بهذا العنوان ، ولكنه كتب عن هذه الجريدة التي اصدرها يعقوب صنوع في القاهرة عام ١٨٧٧ ، ثم اوقفها الخديو اسماعيل بعد نحو شهرين . وكانت اعداد الجريدة الخمسة عشرة التي صدرت خلال الشهرين من الاستفزاز لاسماعيل بحيث اضطر صنوع إلى الهجرة من مصر في ٢٢ يونيو ١٩٧٨ . وما إن حط رحاله في باريس حتى استانف إصدار الجريدة تحت اسماء وعناوين اخرى . ومع ذلك عرفت الجريدة باسمها الاصلي الذي اشتهرت به . وزاد من شهرتها انها فتحت النيران في باريس على الخديو ونظامه . وكانت الشرطة تتعقب اعدادها التي تصل سرا إلى مصر ، ولا سيما القاهرة..

ومع ان صنوع تحلق مع محمد عبده وغيرهما من المريدين حول جمال الدين الافغاني اثناء سنوات إقامته في القاهرة ، فيبدو ان ذلك لم يَحُلْ دون وقوع خلافات بين مريديه . ويبدو ايضا ان محمد عبده لم يكن على وفاق مع صنوع ، ولا كان راضيا عن طريقته في الكتابة والصحافة . ومن الادلة على ذلك انه لم يكتب شيئا لصحف صنوع ، لا في مصر ولا في فرنسا ، مع ان الافغاني نفسه ساهم فيها ، في القاهرة وباريس معا .

لا ندري دوافع سخط محمد عبده على جريدة « ابو نظارة » . فربما كان ذلك لاسباب موضوعية ، وربما كان لرغبة شخصية في عدم الظهور بمظهر المعادي لاسماعيل وولي عهده توفيق . وربما كان تاييدا وتفسيرا لوجهة نظر الافغاني وقتها .

وهو لم يعبر عن سخطه هذا بشكل مستقل ، وإنما اودعه مقالا بعنوان « التربية » وفيه لخص درسا ـ او محاضرة ـ القاه الافغاني على جمع من الطلاب والموظفين . وكان الافغاني في ذلك الدرس يرى ضرورة وجود النصحاء والمرشدين في كل امة ، ومنهم الخطباء والوعاظ والكتاب و « ارباب الجرائد » على حد تعبيره . وعندما بلغ محمد عبده تصنيف الافغاني للصحافيين وارباب الجرائد في قوله :

« ... فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم ، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والإجلال ، وقاموا بخدمة اوطانهم وابناء جلدتهم ، وإلاّ استحقوا الرفض والطرد

والابعاد . ووجب على من يهمهم امر الإصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي ، الذي لا يقتصر ضرره على المبتلي به ، بل يتعداه بالسراية إلى كل ما سواه »

عند هذا الحد علق محمد عبده على ما اشار إليه استاذه الذى كان ـ فيما يبدو ـ حريصا على ثقة اسماعيل وتوفيق به . وقبل ان نورد التعليق يحسن ان نورد تقديم جريدة « مصر » لمحمد عبده في صدر مقالتي الافغاني اللتين قام هو بإعدادهما للنشر . فقد كتب محرر الجريدة المذكورة في عددها ٤٩ في ٥ يونيو ١٨٧٩ :

« وردت إلينا المقالتان الآتيتان من حضرة مظهر نور الجمال والجلال ، ومطلع بدر الحكمة والكمال ، العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبده مدرس علم الكلام الأعلى بالجامع الأزهر ، أعزه الله »[1]

وهذا نص تعليق محمد عبده على قول استاذه :]

« ولقد وقفت على مغزى كلامه ، وحقيقة مرامه ، فأيقنت أنه عنى بذلك جرنال أبى نظارة ، ذلك الجرنال الهزأة ، الذي لم يدع قبيحة من القبائح إلا احتواها ، ولا رذيلة من الرذائل إلا أحصاها ، أتى من العبارات ما لا يستطيع السوقة ، وأدنياء الناس أن يأتوا به ، وجعل ديدنه السب والثلب وثلم الأعراض ، وتمزيق حجاب الانسانية ، والقدح في السير الشخصية ، بما لا يليق أن يتفوه به الصبيان ، مما يفسد الأخلاق ، ويذيب الوجوه خجلا وحياء .

على أن ليس فيه نكتة مضحكة ، ولا لطيفة مسلية . وإني لأعجب من أناس يتناولونه بأيديهم ، ويميلون لقراءته ، والنظر فيه ، مع أنه لا يحتوي على سياسة ولا أخبار ، ولا مضحكات ولا فكاهات ، بل هو محض الشتم واللطم ، مع وجود الجرنالات العربية الحرة ، كمصر والأهرام والوطن ومرآة الشرق ، تلك الجرنالات الوطنية التي قد بلغت في حريتها ونشرها للأفكار العالية مبلغ الجرائد الأوربوية . وتلك حالة لم نتوهمها في الأزمان السابقة .

ولم يكن ذلك من محرر ذلك الجرنال الهزء البارد إلا لدناءة الطبع ، والميل إلى كسب الدنانير والدراهم ، أو ينال بهذيانه هذا من زيد أربعين جنيها

---

(١) انظر الصحيفة المذكورة ، ص ٢ . وكانت المقالتان قد نشرتهما جريدة « التجارة » في عددها ١٣ في ٣ يونيو ١٨٧٩ ، اي قبل يومين من ظهورهما هنا ، مع ملاحظة ان الجريدتين كان يحررهما تلميذ الافغاني اديب اسحق . والتعليق منقول عن « التجارة »

في الشهـر ، ومن عمرو أقل ، ومن بكر أكثر . وتلك دنيئة تأباها الشيم الكريمة . ولقد تغالى منشئه في الوقاحة ، حتى أشار في كتاباته وخزعبلاته أن أبناء المجامع المقدسة ذات المقاصد العالية المبنية على محض الأدب والانسانية هم مشاركوه في عمله هذا . حاشاهم ، حاشاهم ، أن تتدانى هممهم لهذه المقاصد الساقطة . فقد كذب وافترى ، واعتسف واعتدى .

ولطالما كنت أرود نفسي بيان شناعة ما يرتكب هذا الجرنال الخبيث المقصـد ، الدنىء المنبـع ، وإعلان ذلك على ألسنة جرائدنا الوطنية ، أيدها الله . غير أني كنت أخشى أن يكون لومي إغراء . حتى إذا بدا لهمة الأمير الوطني صاحب الأفكار العالية والنفس الطاهرة الذكية ، والبصيرة النـافذة ، محب الوطن وبنيه ، الغيور على أمته ، الحريص على وقاية شرفها ، حضرة مأمور ضبطيتنا ، سعادة محمود باشا سامى[٢] ، كثر الله في الأمة أمثاله ، أن يضبط ما يرد من أعداده إلى المحروسة[٣] ، دفعا لما يسرى الى الأذهان من سم فساده ، فلا جرم قد استحق بذلك ثناء ذوي الألباب ، وشكر الكُمَّل ، ومحبى الانسانية ، على قيامه بحق وظيفته السامية ، التي نسبتها إلى الأمور البدنية ، والآداب ، كنسبة مجلس الصحـة إلى الأحـوال البـدنية . فكما في الثاني مراقبة ما يحدث من الأمـراض ، واختـلال الصحة ، ليبادر إلى منعه أو قطعه ، كذلك على الضبطية أن تدقق النظر في كل ما يخل بالآداب ، أو ينتهك الحقوق التي قد حددتها الشرائع الحقة ، أو يساعد أمراض النفوس على اغتيالها ، لتـزيل كل ذلك ، وتمحقه ، وتقطع أسبابه . فلنعم الصنيع صنيعه ، زاده الله كمالا على كماله ، وإقبالا على إقباله[٤] .

---

(٢) محمود سامي البارودي الشاعر ، الوزير ورئيس الوزراء فيما بعد .

(٣) القاهرة .

(٤) اعاد رشيد رضا نشر مقالتي الافغاني دون تعليق عبده . انظر : المنار ج ٤ في ٢٤ مايو ١٩٠٦ ص ص ٢٦٥ ـ ٢٧٥ مشيرا الى انه نقلهما عن جريدة « مصر »

الحق المر

[في ٢٣ سبتمبر ١٨٩١ كتب جمال الدين الافغاني رسالة إلى محمد عبده ، وهو مار بميناء بورسعيد في طريقه إلى انجلترا [*] . وفي لندن حط رحاله لآخر مرة ، وبدا في مطلع عام ١٨٩٢ في المساهمة في تحرير مجلة شهرية صغيرة باسم « ضياء الخافقين » ظهرت في مطلع فبراير من ذلك العام ، واستمرت بضعة اشهر . وكان يحررها كاتب لبناني يدعى حبيب سلموني .

وقد عثرت في عدد ابريل ١٨٩٢ من هذه المجلة على مقالة بالعنوان السابق (الحق المر) بغير توقيع . ومع ان المجلة حفلت بمقالات اخرى بغير توقيع إلا ان هذه المقالة ردتني بعد قراءتها وتفحصها إلى محمد عبده ، واقنعتني بانه كاتبها . فالصلة بينه وبين استاذه ـ حتى ذلك التاريخ ـ لم تكن قد انقطعت . ولابد انه بعث الى استاذه برد على رسالته السابقة . ومع الرد يجيء إحتمال ارسال المقالة ايضا ، فضلا عن انها تحمل آراءه في تلك الفترة ، وكان قد عين قبيل وصول رسالة استاذه قاضيا بمحكمة الاستئناف ، عام ١٨٩١ . وكانت اموره قد استقرت ، واصبح على وفاق مع اللورد كرومر والسلطة الانجليزية .

وبغض النظر عن تطابق الآراء والإفكار والاسلوب فإن الرسالة تحمل كثيرا من مواقف محمد عبده ، إزاء حكم الاجانب والثورة العرابية ، والاحتلال الانجليزي . وقد جاءت في نهاية المقال عبارة « ستاتي البقية » ، فالمقالة ـ كما هو واضح ـ تبدو ناقصة . ولكن هذه البقية لم تات على اي حال . فقد توقفت المجلة بعد شهر من ظهور المقالة . ولكن تظل المقالة في شكلها الحالي من إنشاء محمد عبده .]

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهدا لله ولو على انفسكم »

قد استفحلت اليوم المناقشات والمجادلات ، وتكاثرت المنازعات والمحاورات ، بين أرباب الأقلام في الجرائد المصرية ، بشأن الاحتلال الأجنبي . وعظم القال والقيل في المجالس ، وانحصر حديث الخاص والعام في ذلك ، وكل فريق يتشيع لرأيه ويشيد بفكره ، لا يطاوع إلّا فيما يمليه عليه لسان الغرض الكامن في النفس ، ويشير به مشير الهوى المتسلط على الضمير . فالحجة الدامغة عندهم ، والبرهان الساطع لديهم ، والقول الفاصل في مسائلهم ، التقريع واللوم والتنديد بما يأتي به أحدهم في أقواله ، حتى أشكل الأمر ، واختلف الشأن ، فانخذل

(*) اورد محمد رشيد رضا نص الرسالة وصورتها الفوتوغرافية في كتابه « تاريخ الاستاذ الامام » ولكنه ارخها بعام ١٨٨٢ ، والاصح ما ذكرناه . انظر : المصدر المذكور ، ج ١ ، ص ٢٨٢

سلطان الحقيقة ، وضلت الأحلام ، وتخبط سير العقول . وظل المصري بينهم حيران مبهوتاً ، لا يدري على أي طريق يعرج ، وبأي نجم يهتدي ، وأي سبيل يقصد . فوجب إذن على الوطني الصادق في وطنيته أن يغض النظر عن تلك المنازعات ، ويطرح الأغراض الذاتية برهة ، وأن يضع بينه وبين حرب الأهواء هدنة ، وينظر إلى ضوء الحق فيقرره ، ويهدي إليه من لم يمل كل الميل إلى تلك المنازعات ، ومن كانت في نفسه بقية من حب الحق وإن كان مرا ، فنقول :

فأوجب واجب طبيعي يسعى نحوه الانسان إن أراد أن تنطبق عليه صفة الانسانية هو الحصول على حرية اللسان الذي هو ترجمان الضمير المفصح عن الأغراض ، وإعدام العوارض والمؤثرات التي تحول بينه وبين هذه المزية . وبخلاف ذلك يكون الانسان في درجة ساقطة عن درجة الانسانية والحيوانية أيضا .

ولما لهذه الحرية من الشأن الجليل والمقام الأول قد وجدنا صحف التاريخ مشحونة بذكر من مضى شهيدا في ميدان الحصول عليها . وما زالت الأنفس الشريفة تعرض نفسها للأخطار ، وتلقي بأرواحها في نيران المهالك ، لا همّ لها إلا أن تعيش حرة بين قوم أحرار ، حتى تأصل هذا الفكر في كثير من أفراد الأمم على توالي الدهور ، فقاموا على الظَّلَمَة الذين يغلقون أمامهم أبواب تلك الحرية ، فانتصروا يوما وانهزموا آخَر ، وسفكت الدماء ، وهلكت النفوس ، إلى أن وصلت الأمم الغربية إلى ما هي عليه الآن من نوال تلك الحرية والتمدن ، بعد أن تصارعت أرواحها مع جيوش الظلمة قرونا عديدة ، ثم تدرعت بعد ذلك بدروع التهذيب والعلوم ، وتحصنت بالاتحاد والتآلف والاتفاق والتحالف بين أفرادها لحماية ما في يدها من الحرية أن تعبث به أيدي رؤسائها وحكامها ، فقيدتهم بقيود النظام والقانون ، ووقفت أمامهم بالمرصاد ، وتيقنوا منها القُوَّة والعزم والشهامة والثبات ، فغلت أيديهم ، ومحا هول هذا الموقف ما تركب في النفس من حب الاستبداد والاستئثار ، حتى صار نسيا منسيًا .

وبقي الشرق مندمجا في جهالاته منغمساً في ضلالاته لا يدري ما تلك المزية وما مقدارها ، حتى اختلطت الأمم الغربية بأهله ، فلحظوا من خلال اختلاطهم وتداخلهم شعاع تلك الحرية ، فانبهرت عيونهم .

واندهش لبهم ، ولم يقفوا على حقيقتها وحقيقة الطرق التي توصل اليها ، فعظم شأن الأجنبي في أعينهم ، وصار بالنسبة إليهم في درجة أرقى من درجتهم (لأنه توصل إلى تلك المزية التي تجعل الانسان إنسانا كاملا كما تقدم) فأهملوا البحث عن الأسباب التي ارتقت بها تلك الأمم إلى مراكزها والطريقة التي أنالتهم تلك الحرية ، لما في ذلك من عظيم التكاليف وتعريض الأنفس للتلف ، فاستسهلوا تقليد الأجنبي فيما لا تثقل تكاليفه عليهم ، فعمدوا إلى ظواهر التمدن فتحلّوا بها وأحسنوا التقليد له في الزي والمعاملات البسيطة والتكلم بلغاته والتمسك بتقاليده ، حتى صار الأجنبي عندهم الإمام الذي يهتدون به ويقتدون ، فتعالت مرتبته بينهم ، وانتهز هذه الفرصة لسلب أموالهم واستعبادهم وتنفيذ أغراضه ومآربه ، مستبشرا مسرورا بكونهم تعلقوا بظواهر التمدن دون بواطنه ، وأنهم لم يلتفتوا إلى سلوك الطريق التي أوصلته إلى الحرية والتمدن الحقيقي واهتداؤهم لذلك مما يعطل عليه أغراضه وأطماعه فامتلأ الأجنبي ثروة من جهة ما ينتزفه من دم الأهالي بسطوته وعلو كلمته ، ومن جهة ما يسحبه من ثروة الحكام المستبدين جزاء معاونته لهم على ظلمهم بالأهالي .

وقد مضى على مصر خاصة زمن ليس عهده ببعيد منا كان فيه أهلها أسوأ أهل الشرق حالا . لم تنبئنا بذلك صحف التاريخ ، ولا تلقينا علمه غن أفواه الرواة ، بل شاهدنا تلك الحال بأعيننا ، وقاسينا أهوالها بأنفسنا . ويكفي لأحدنا أن يرجع النظرة كرة إلى الحال التي كنا فيها قبل اليوم بمقدار سن المراهق فيرى الأموال منهوبة ، والأعراض مهتكة ، والبيوت مخربة ، ومكان الأنفس بين السيف والقطع والشنق والصلب والنفي والضرب والتعذيب ، وأهوالا ولا كأهوال القيامة . واطمأنت على ذلك النفوس واستأنست به . وكانت تخلو فما تتناجى بالأمانيّ ، حتى تخيلت أن هذا هو من موجبات نظام الهيئة الاجتماعية ومقتضيات المدنية . كل ذلك والأجانب عون عليهم لا يرشدونهم إلى طريق نجاحهم ، ولا يهدونهم إلى معرفة حقوقهم .

وكانت أمنية الوطني الوحيدة أن ينسلخ عن جنسيته ووطنيته ، ليخلع عليه الأجنبي خلعة الحماية ، بعد أن يستفرغ منه جميع ثروته في سبيل الحصول على ذلك ، حتى يمكنه أن يعيش متحفظا على هذه الحياة

الدنيئة بين أولئك الذئاب الطلس ، ثم ينظر من جهة أخرى إلى الحكومة فيرى شر ما رأته عين ، يرى السلطان والقوة فيها للأجنبي ، والرياسة والادارة في يد قبضة من الرجال قد سبكتهم يد الاستبداد فأخلصتهم جسما طائعا متحركا تديره كيف شاءت ، ليس له فكر يخشى منه التبصر في عواقب ما يصفه من الفظائع ، ولا علم يهذب من قبيح أفعالهم ، بل هو مسخر ، آلة ، لجمع المال ، فيدلي دلوه في بئر ثروة الأهالي فيستنبط منها أموالهم معكرة بدمائهم وأحشائهم ، ثم يصب بها في حوض الاستبداد المتخرق . فإذا نضب البئر ولم يمتلىء ذلك الحوض بالطبع أخذ الظالم ما في يد المستقي مما اختلسه من المال أثناء انتهابه من الأهالي فاستوفاه منه ، فقتل أو نفي أو طرد أو ألزم بيته .

أين كانت تصرف هذه المبالغ ؟ هل كانت تصرف في تنظيم نظام أو تأسيس مدنية أو نشر للعلوم أو تقدم للعمران ؟ هل صرفت في حروب للمدافعة عن الوطن ، أو في فتوحات البلاد ، أو في إصلاح للأراضي وتعميم للري لتنصلح المزارع وتتزايد ثروة البلاد ؟ هل أنفقت في تنظيم للمحاكم أو تأييد للشرع أو في إنشاء فابرقات [٦] ومعامل وغير ذلك من المنافع العمومية ؟ كلا ثم كلا . كانت تصرف هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في سبيل الشهوات خاصة ، وقفا محتبسا عليها دون سواها ، فيبذل جانب منها لإرضاء هذه الدولة ورفع غضب الأخرى ، وترتيب الدسائس للوصول إلى غرض معلوم ، مضرة بمصر ومداراة لأرباب الجرائد الأوربوية ، خيفة أن تنشر شيئا مما يصل إليها من أنواع تلك المظالم . وكان يكفي لمن رام الغنى والثروة من الأجانب أن يشهل عزمه على تأليف كتاب في حالة مصر فتنتثر أمامه الألوف من الدنانير وتهال عليه فيسقط القلم من يده ، وربما عمد إلى عكس ما أراده فينشر تأليفه محتويا على أنواع المفتريات التي تشهد بحسن الحالة المصرية . ثم ينفق جانبا آخر منها لتشييد القصور التي تضل في ساحاتها الصافنات الجياد ، فيفرشونها بالسندس ، ويموّهون بنيانها بالذهب ، ويجعلون فيها لأنفسهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ثم يستجلب لسكناها الآلاف من الجواري الكاعبات ، والقيان

(٦) الكلمة معربة بمعنى : مصانع . وربما اضافها محرر الجريدة .

المعزفات ، من أقاصي البلدان وشاسع الأقطار ، فيتقلدن الجواهر ويطأن الدر والمرجان ، ويؤتي لهن بالعبيد الخصى حراسا ورقبا ، فلا يلبثون أن يصيروا ساداتنا وأشرافنا وأمراءنا حتى كأنما كان الشاعر ينعى علينا تلك الحال بظهر الغيب في قوله :

سادات كل أناس من نفوسهمُ
وسادة المسلمين الأعبدُ القُزُم [٧]

والعزيز الكريم فينا صاحب الهمة الشامخة والنظر العالي من كان متصلا بحبل من عبيد أولئك الخصى . ولم يقتنع طائر الشهوات بما لديه من الآلاف المؤلفة من الغواني ، بل كان يترقب الدقائق والساعات للوقوع على الزانية الفاجرة ، والورهاء العاهرة ، فيكال لها الذهب كيلا في مبيت ليلة ، ويهدي إليها العقد من اليواقيت ، تجمعت قيمته مما انتزع من أقوات مئات ألوف من المصريين . وأيم الله لو علمت الفاجرة بشناعة الطرق والوسائل التي استعملت لجمع ثمن ذلك العقد ، وبكمية الأنفس التي هلكت جوعا والتي سفك دمها ، وأن ذلك الياقوت الأحمر إنما هو الدم المتجمد من أنفس الضعفاء والمظلومين والدمع القانيء المنسكب من أعين الأرامل واليتامى لعافته وأنفته ، ولأحسّت به منظوما من رؤوس الأفاعي وأذناب العقارب .

كيف كان شأن الوطنيين إذ ذاك وحالهم ؟ هل كانوا ساخطين على تلك الهيئة ؟ هل فزع منهم فازع يطلب رفع الظلم ونوال الحقوق الطبيعية ؟ هل قام قائم منهم فيوجه الاستبداد يدفعه أو يخفض من سورته ؟ هل أظهر أحدٌ منهم شكواه ؟ هل تألفت لهم قلوب يتعاونون بها على احتمال المظالم ؟ كلّا . بل كانوا بكماً لا ينطقون ولا يتحركون . كانوا ظالمين مظلومين ، عونا للظالم على أنفسهم يتهللون بمظاهر الاستبداد المزخرفة ، كأن ذلك لم يكن مأخوذا من دمائهم وأموالهم . وكانت ألسنتهم لا تنطق إلا بالثناء وأقلامهم لا تطرز إلا المدائح وإشاراتهم لا تصدر إلا بالاستحسان . وأمعنوا في هذا الباب حتى سئمت نفوس المستبدين ذاتهم من ذلك وابتذلوه ، وأذلهم مذلة من لا يقبل منه صرف ولا عدل . فحدثنا محدث أن أحد الولاة السابقين [٨] زار مدينة طنطا في

---

(٧) البيت للمتنبي .

(٨) لعله يقصد الخديو توفيق . وقد توفي عام ١٨٩٢ قبيل نشر هذه المقالة .

مولدها فتشرف عمد الغربية بالمثول بين يديه . وخطر له أن يسألهم عن أحوال مديرهم وإدارته للأعمال فأطنبوا وأسهبوا كعادتهم في إمتداحه ، وأفرغوا جعبة الثناء ، وأقسموا أن المديرية لم تتزين في دهرها بمثل عدله ورأفته وحسن إدارته . وخرجوا من عنده فتشرفوا بحضرة المدير فنقلوا إليه ما حصل تزلفا له وتقربا منه ، فتركهم ودخل على الوالي مكتئبا حزينا يغيض من دمعه فوقع على أقدامه يقبلها ، فاندهش الوالي لذلك ، وسأله عن حاله ، فقال له وهو مختنق بالدمع : هل بلغ من هوان أمري على مولاي وازدرائه بي أن يسأل العمد عن أحوالي ؟ وكيف يتسنى لي أن أحكمهم وأدير شؤنهم ، وقد رأوا أنهم صاروا أهلا في نظر مولاي للسؤال منهم عن أعمالي ... بخ ... بخ ...

وقد كان من ضمن الوسائل التي تفنن فيها الاستبداد أنه اتخذ من العمد وأعيان المديريات مديرين وحكاما ، لأجل أن يتوصل بهم إلى سلب ما بقي لدى الأهالي من ثروة أو قوت ، لكونهم أدرى بأحوالهم من بقية الحكام ، وأعلم بمواضيع الثروة ، فرأيناها أشد وطأة على المصريين ، وأنفذ سلاحاً في جلودهم ، وأجرأ يداً في استلاب أموالهم من سواهم . ولم يقتصروا على نزع أقوات الأهالي وأملاكهم وإهدائها للحاكم ، وابتلاع جانب منها لأنفسهم ، بل كان أكبُر هَمِّهم الايقاع والبطش بأفراد عائلتهم وإيذاء أهلهم . فكان فيهم الضارب لابنه ، والسالب لأبيه ، والقاتل لأخيه ، والمانع ماء الر ي عن أطيان أهله ليموت زرعهم وتخرب بيوتهم . ثم هم بعد ذلك معزولون مسلوبون .

فكانت رجال الحكومة والإدارة عبارة عن سلسلة من النهب والتعدي تظلم الحلقة الكبرى منها الحلقة الصغرى بالتدرج ، وهكذا إلى أن تصل إلى الفلاح المسكين ، فتنطبق على عنقه حتى تسوخ أقدامه في الطين ليستخرج لهم منه ما يريدونه من ذهب الأرض ممزوجا بدمه ودمعه وعرق جبينه ، فينتقل ذلك من الحلقة الصغرى إلى الحلقة الكبرى ، وهلم جرا ، حتى يصل إلى يد الحاكم القابض على أطراف السلسلة .

ولو استرسلنا في هذا الباب لما وسعته المجلدات التي لا تسعها الكتبخانات ، وإنما أردنا أن نذكر قطرة من بحور تلك المظالم وسوء الأحوال ليتنبَّه إليها المصريون وليتذكروا ما كانوا فيه . إن الذكرى تنفع المؤمنين فيخجل بعض أولى الأغراض منهم من التبجح بامتداح تلك

الحـالات المـاضيـة ، والتـأسف من تجاوزها إلى ما نحن فيه اليوم ، وتسميتهـا بأيـام الرواج وأزمـان السعادة ويتمنون أن لو عادوا إليها وعادت لهم . ولهم شبه العذر بأن يعدوها أيام رواج ، لأن تداول مئتي مليـون جنيـه تقـريبا في مدى ثمان عشرة سنة وتنقلها من أجزاء تلك الحلقـات ، حتى خرجت عن مصر يعـده البسيط الساذج وذو الغرض رواجـاً ، فضـلا عن مبلغ المئة مليون جنيه من الدين الذي استدانته الحكومة من الأجانب ، وما لبث أن عاد إليهم . وما سلم على مصر حتى ودعـهـا . فإن صح أن الصراف الذي تتـداول على يده الألوف من الجنيهات يوميا فيقبضها ثم يصرفها ، أنّه غني وذو ثروة من أثر ذلك ، صحَّ أن تلك الأيام كانت أيام سعادة ورواج .

وما الذي يؤمنهم أن عادت لهم تلك الحال أن يكونوا هم أول مسلوب وأول مقتول ؟ هل اتخذوا عقدا وميثاقا من الظالم أن يكونوا سالبين غير مسلوبين مرتفعين غير متضعين ؟ فالظالم لا عهد له . وقد رأوا بأعينهم من كان أعظم منهم مرتبة وأعلى منزلة لم يحلموا بنوالها في نومهم كيف أخذ في ليلة واحدة فقتل ثم سلب وكان أعز صديق وأكبر معين . فأولى لهم ثم أولى لهم أن يحمدوا الخالق على خروجهم من تلك الحال سالمين ، وليتمتعوا بما بقى لهم من ثروتهم ، وليخفضوا على أنفسهم ، ويتركوا هذه الأوهام والخيالات ولا يكونوا حجة للأجنبي علينا .

تلك كانت حالنا في الزمن الماضي أقمنا عليها نقبل اليد التي تذبح ، ونلثم الذيل الملوث بدمائنا ، حتى غاضت ثروة البلاد ، وأثقلت بالديون ، فوجد الأجانب لهم حقا شرعيا للتداخل في أمورنا وإدارة شؤننا حفظا لأمـوالهم ، إلا انهم كانـوا مقتصرين على هذا البـاب فقط ، ليس من غرضهم ولا من مأربهم إصلاح حال المصرى ونواله للحرية وإرتقائه في المدنية ، بل كان عامة سعيهم في ازدياد نفوذهم ونوال حقوقهم ، فاشتد الضنك ، ووصلنا للنتيجة الناشئة على ذلك الاسراف في الظلم والتبذير في في الأموال ، واستجيبت دعوة المظلوم والضعيف .

خِفْ دعـوة المظلوم فهي سريعة	طلعت فجـاءت بالعـذاب النـازل
عزل الأمـير عن البـلاد ومـاله	إلاّ دعـاء ضعـيـفهـا من عازل

وما كدنا نخطو خطوة في طريق التنبه لأحوالنا ، والنظر في لمِّ شعثنا ،

وما كاد أولو النباهة منا يجرؤون على الحاكم فيلتمسون منه إجراء الاصلاح ، وتشييد الحرية ، كأن ذلك هو الطريق الوحيد لنوالها ، وكأن حاكما مطلقا يعطي الحرية للأمة من تلقاء نفسه . إنما تتشيد الحرية بيد الأمة لا بيد الحاكم ، كما قدمناه . وما زال ذلك ديدننا حتى قامت الثورة العرابية .

ومن وقف على حقيقة تلك الثورة علم أنها لم تكن من الثورات المرتبة على طلب الحرية وتنظيم الحكومة ، وإنما دفع إليها أربابها اندفاعا على غير استعداد لها ولا تروٍّ في أمرها . وكان منشؤها أن جماعة من الضباط غضبوا لما استحسوا بوجوب توفير في الجيش ، وفقد مراكزهم فيه ، وتقديم خلافهم عليهم ، فساعدتهم ظروف تلك الأحوال على المجاهَرَة بنفورهم ، فطلبوا عدم التوفير في الجيش أولا ، فردعتهم الوزارة ، وضيقت عليهم ، ولكنهم وجدوا معينا لهم من طرف آخر يحاول أن ينتفع من حركتهم ، فطلبوا عزل الوزارة ثانية ، ثم تورطوا في الأمر ، وأحبوا أن تدخل الأهالي في زمرتهم ، فطلبوا تشكيل مجلس للنواب ثالثا . وما زالت دسائس أولى الأغراض، وسيَّال الحوادث ومجراها، وأحكام الصدفة تدفع بهم وتجذبهم بأصابعها ، حتى عظم أمرهم ، وقويت شوكتهم ، فاجتمع عليهم الجانب العظيم من المصريين ، بعضهم لغرض شخصي ، وبعضهم للمل من تلك الحالة ، وبعضهم لمجرد الميل إلى الجانب الأقوى ، والبعض الآخر لأملهم في حصول أي تغيير في الأحوال كما يتولع بذلك أكثر أفراد الأمم .

وساروا في طريقهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، لا يعلمون لهم مبدأ يحاولون تأييده ، ولا ترتيبا هم عازمون على حصوله ، ولا شكلاً للحكومة التي يريدون إقامتها على أنفسهم . وكلهم لا يدرون ماذا يفعل بهم . فتارة يطلبون والياً مكان آخر ، وتارة يرومونها جمهورية مركبة من أرباب السلاح قائمة على ذباب السيف ، وطورا يبتغونها حكومة مقيدة ، وحينا يجعلونها ولاية عثمانية ، وآخر يريدونها مستقلة . فلم يكن لهم رأي ثابت ولا مقصد معين بل كانت أعمالهم وأفكارهم بنت الساعة وربيبة الدقيقة . ولم يكونوا يعرفون للحرية التي يصيحون بطلبها تحديداً ، ولا يعلمون لها تكييفا ، وإنما كان بينهم فئة قليلة من المصريين قد أحسنت تربيتهم ، وعُلِّموا ماهية الحرية ومادة الحقوق الوطنية ، وتحلوا بالعلوم

والفضائل . وحلب الدهر أشطرهم ، وصقل التهذيب أفكارهم ، بما كانوا يتلقونه ويدرسونه من ذلك على إمام أستاذ فاضل ، أقام بينهم مدة من الزمن كان مشربه رفع الظلم عن المسلمين ، وبَسْط العدل فيهم ، وإحياء السنة وإماتة البدعة ، وإعادة المجد القديم للاسلام . ولم يزل مشردا في البلاد مطردا لا ينثني عن عزمه ورأيه [٩] . فانتهزوا فرصة تلك الحادثة هم ومن استفاد منهم ، واختلط بهم لنوال الحقوق الوطنية ، وانضموا إلى تلك الحركة .

ولكن لم يكن ليتيسر لهم انتصار رأيهم وتعزيز مبدئهم في لُجَجَ ذلك التهور وتيار تلك السطوة . فانتصرت دولة الأحلام ، وفازت صولة الخرافات والأوهام ، ورفع السيف فوق الأعناق ، فخضعت الرقاب ، وأسلست في القياد وذلت النفوس والتوت الألسن ، فكان حال المصريين أنهم يطلبون الحرية بواسطة الاستبداد ، ويحاولون نوال الرحمة من طريق القسوة كمن يحاول استخراج الأَرْي[١٠] من الحنظل والشهد من العلقم . وكان شأن تلك الفئة في تورطها كشأن كاتون [١١]الروماني . وهو فيلسوف وطني حرّ كان أوقف حياته على نوال حرية وطنه . وكانت انقسمت الأمة الرومانية إلى قسمين : قسم يحاول قلب الحكومة إلى ملكية تحت قيادة قيصر ، وقسم يريد بقاءها جمهورية تحت رياسة بومبيه . فانضم كاتون إلى القسم الأخير مع علمه بأن بومبيه وأشياعه لهم أغراض خصوصية ، وليس يرجى منهم نوال الحرية التي يطلبها لبلاده إن هم انتصروا ، فخرج مع ذلك في حزبهم متسلحا للحرب ، فقال له بعض أصحابه : كيف حالك ورأيك في نفسك ؟ قال له : شر ما حال . إن إنتصر قيصر قتلني ، وإن انتصر بومبيه قتلت نفسي . قال له صاحبه : وكيف ذلك ولك من علو المكانة بين حزب بومبيه مايضمن لك أن تكون في منزلة عظيمة إذا انتصروا ؟ فأجابه الفيلسوف : إن غرضي أن أعيش حرا بين قوم أحرار لا أن أعيش عزيزا بين قوم أذلاء .

ثم إنحاز قسم من المصريين إلى الحاكم تعلقا بأسباب حفظ الحالة التي كانوا عليها والتمسك بمراكزهم التي نالوها ، وطلب من دولة

---

(٩) يقصد جمال الدين الافغاني مشيراً إلى اقامته بمصر وتربيته لبعض شباب الوطنيين .
(١٠) الأرى ـ بتسكين الراء ـ هو العسل .
(١١) يقصد كاطو ، اوكاتو Cato

الانجليـز أن تساعد على إطفاء الثورة ، فحضرت عساكرها ، وحصلت الحرب التي ليس هنا موضـع تفصيل أحوالها فهزمت العسـاكر المصرية ، وفـر رئيسـهـا من ساحة الحرب استبقاء للحياة مع عدم الثقة بذلك . ودخلت الانجليز بعد أن سفكت دماءها وأنفقت أموالها ، ولم تفعل ذلك انجلترا محبة في سواد عيون المصريين ، بل لأغراض لها دفعتها إليها .

ولـما دخلت رجـال الانجليز حقنت الدماء وأغمدت سيف الانتقام ، وأخذت تباشر ما في نيتها من الاصلاح ، وإقامة منار الحرية على مقتضى ما نالته أمم أوروبا بأتعاب جسيمة ، وتكاليف شاقة ، في مسافة قرون عديدة كما تقدم في صدر المقدمة . ولكنها وجدت المصريين مختلفي الرأي ومتفرقي الكلمة ، ووجدت بينهم علو كلمة الأجنبي والدخيل ، ووجدت مصر أشبه شيء بمدينة بابل يوم تبلبلت الألسن ، فلم تتمكن من الوقوف على حالة المصريين واستعدادهم ولياقتهم ، بالنسبة لما تقدم ، وبالنسبة لجهل رجالها بلغة البلاد وعوائدها . واشتبه عليها الأمر فلم تجد أمامها رجالا تنشر الاصلاح بواسطتهم الاّ من وجدتهم قابضين على أزمة الإدارة والحكومة . ولم تجد من المصريين نفورا منهم وانحرافا عنهم ، وهم من عملت لم تسلم يد أحد منهم من انغماسها في غمار الأزمان السابقة ، أزمان الظلم والاستبداد ، شبوا عليها وشابوا فيها وذاقوا لذتها ونالوا من فائـدتها . فلم تر الانجليز بدا من مباشرة الاصلاح على أيديهم . ولم يوقفها المصريون على طريقة أخرى سوى هذا السبيل فكانت تسعطهم أسباب الاصلاح في أنوفهم كما يتسعط المريض الدواء وكانوا ينتقمون لأنفسهم ، فما كان من خير وإصلاح جبروا على فعله وقهروا عليه نسبوه أمام المصريين لأنفسهم . وما كان من شر وخلل وتقصير تمكنوا من إبقائه ودوامه نسبوه الى الانجليز ، والمصريون يسلمون ذلك لهم ببساطتهم ، وبما بقى في نفوسهم من أثر الطاعة العمياء لأولئك الحكام ، ويشتركون معهم في التسخط من هذه الحالة ، حتى توهم المصريون في حكامهم وفي أنفسهم استعداداً كافلاً لاجراء الاصلاح وتأييد الحرية . وتخيلوا أنهم نالوا بأنفسهم ما هم فيه اليوم من الحرية الشخصية وإصلاح المالية وتحسين أحوال الري وسلطة القانون وحفظ الأموال والأرواح ، وتنظيم الجيش ، وحـريـة الجـرائد والأفكار ، حتى بلغت مصر في مدى تسع سنوات ما لم تبلغه أمة أجنبية في مسافة مائة عام مع سفك الدماء وبذل

الأرواح .

ومال المصريون الى جانب الأجانب الذين لا يهمهم من حال المصري إلا أن يكون فريسة نفوذهم وقربان سلطانهم ، كما تعودوا عليه من زمان بعيد يمتصون دمه بأنبوبة الا متيازات الأجنبية . وكلّما حاولت انجلترا أن تساوي بين المصرى والأجنبي ، وتخفض شيئا من سورة تلك الامتيازات قامت قيامة الأجنبي الذي يموه على المصريين أن لا غرض له إلا مصلحتهم خدمة للانسانية وأن بقاء حالته متمتعا بانتزاف ثروة البلاد خارجا عن حكم القانون غير متساو بالمصري في شيء من تكاليف الحكومة التي تحفظ له ماله وروحه ، مطلق اليد في هدر دم المصري لا يتكلف لذلك أكثر من أن يتغيب عن مصر مدة يتمتع في أثنائها برؤية وطنه وإظهار أثر النعمة التي نالها من المصريين بواسطة الامتيازات ، ثم يعود إلينا ثانية في زي غير زيه وتمويه لهيئته ، ويقيم بيننا على ما كان عليه . كل ذلك ضامن لراحة المصريين وحسن مستقبلهم كما يزعمون . ثم يطلب منا بعد ذلك أن نتابعه على رأيه ونسايره في طريقه ونعضد شوكته ونفوذه لثبات تلك الحالة حتى لا تبتلعنا الدولة الانجليزية . ليت شعري وأي ابتلاع يكون أبلغ من ابتلاعه لنا . مثال ذلك أن تجتمع جماعة من الذئاب وقع بين أيديهم ظبي في طريقه أسد ، وله طريق آخر للنجاة من الفريقين فيقولون له بعد أن يخفوا عليه طريق النجاة إن الاصلح لك والأنفع أن نقطعك أقساما ونقسمك إربا ونشترك بأجمعنا في إفتراسك ، تحفظا عليك من أن يبطش بك الأسد دفعة واحدة . فيسره ذلك ويساعدهم عليه ، ويقدم له أعضاءه واحدا فواحداً تسهلاً لهم وفراراً من الأسد . ويضل عن طريق نجاته من الطرفين ، وإن سلط الأسد الذئاب .

فخفى على بعض النبهاء منا طريق النجاة للمصريين وأخذوا يصيحون مع الأجنبي المشروح أمره ، وانتهزوا فرصة حرية الجرائد للقدح والطعن والصراخ والعويل . وكل ذلك ينحصر في أمرين : طلب الجلاء وتقصير الانجليز في مباشرة الاصلاح . أما الجلاء فهو أول واجب على كل مصري وطني أن يسعى في الحصول عليه من أبوابه وفي أوقاته . ولا ينثني عنه إلا كل ساقط النفس في مراتب الاجتماع البشري ، بل هو من الأمور الطبيعية أن لا يقبل أحد حكومة الأجنبي عليه . ولكن ينبغي

أن نسعى لذلك بالوسائل الفعالة المؤدية إليه ، بدون أن ينشأ عن ذلك ضرر ، وأن يكـون في الوقت المنـاسب ، فإن الامور مرهونة بأوقاتها . والبرهان قائم بأننا لم نبلغ درجة الحرية التي نتمتع بها الآن وما تبعها من الاصلاح إلا بواسطة الانجليز دون سواهم . وهم لم يستطيعوا ذلك إلا بوجود جيش الاحتلال بيننا . ولولاه لما رضخ حكامنا لإشارة الإنجليز فى إجراء الإصلاح المذكور ولولا دخول الإنجليز لما تيسّر لنا أن ننال شيئا من ذلك بأنفسنا بدليل أننا أقمنا نحتمل الهوان والذل ولم نتفاداهما ، فضلا عن أننا كنا مساعدين للظالم على أنفسنا كما تقدم . ونحن نحن لم تتغير أرواحنا ولا أجسامنا ، ولم تدخل في أنفسنا يد المعجزات فتغير نقصها كمالا وجهلها علما في مدة تسع سنوات والنبهاء المهذبون فينا جزء ليس بعـظيم . غايـة الأمر يمكن لنا أن نقول إن الذين لم يتربوا على الظلم ، ولم تدخل في نفوسهم سجية الامتثال والهوان ، ولم يدركوه ، ولم يتفرجوا في ملاعب الجبروت والعظموت هم صبيان الآن في سن التعلم الابتدائي .

الدين النصيحة

[في عام ١٨٩٥ عاد الكاتب الصحفي ابراهيم المويلحي (١٨٤٥ - ١٩٠٦) من الآستانة إلى القاهرة ، بعد نحو عشر سنوات من الغربة قضاها في بلاط السلطان عبد الحميد . وقد شهدت تلك السنوات الكثير من مظاهر التردي في كيان الدولة العلية ، ولا سيما في أساليب الحكم .

ويبدو ان المويلحي قد عاد مشحوناً بالغيظ مما راى وسمع ، عازما على تسجيل مشاهداته ، وتصوير بلاط السلطان من الداخل ، حتى يقدم للسلطان نفسه ، او من يعنيه الأمر ، صورة لما يجب ان يترسمه اي إصلاح . وبهذا الهدف - في الغالب - بدأ المويلحي ، فور عودته ، في كتابة سلسلة من المقالات بعنوان « ما هنالك » نشرها بجريدة « المقطم » بتوقيع مستعار ، ثم جمعها في العام التالي في كتاب ، نشره بتوقيع « لأديب فاضل من المصريين » . ومع ذلك تسربت أخبار الكتاب الى جواسيس السلطان في القاهرة ، فأرسل السلطان أمراً الى المويلحي يقضي بجمع نسخ الكتاب ، وشحنها الى عاصمة الخلافة ، ففعل ، واختفت نسخ الكتاب إلا بضع منها . ولكن ما لم يختف هو نسبة الكتاب الى المويلحي [١٢] .

لقد وضع المويلحي مقدمتين لكتابه ، إحداهما « لأحد ائمة الإسلام العظام » على حد تعبيره في تصديره لهما . ولكن من يقرأ هذه المقدمة القصيرة بعنوان « الدين النصيحة » ويطابقها على ظروف العصر وعلاقات المويلحي يجد انها لا تخرج في نسبتها على أن تكون لمحمد عبده . وقد كان صديقا حميما للمويلحي ، تزاملا في القاهرة ضمن حلقة جمال الدين الأفغاني ، ثم تزاملا في باريس ضمن حلقة الافغاني ايضا ، ولكن محمد عبده عاد من غربته ومنفاه قبل صاحبه بنحو ست سنوات ، ثم تدرج في القضاء حتى صار قاضيا بمحكمة الاستئناف عند عودة المويلحي . ولم يكن أمام المويلحي من ائمة الاسلام ، ولا من ائمة الكتاب ، سوى محمد عبده ، فليس من المستبعد إذن أن يكون هو كاتب المقدمة او المقال . ويشد ازر هذا الظن أن محمد عبده كان ، وقتها ، من الكارهين لحكم السلطان عبد الحميد وبطانته . وكان ، من جهة أخرى ، متحمسا للخديو عباس حلمي الثاني المكروه - وقتها ايضا - عند السلطان وبطانته ، فضلا عن ان مقارنة اسلوب المقالة بأسلوب محمد عبده في كتاباته الأخرى لا تدع مجالا للشك في انه كاتبها . اما كونها بغير توقيع فذلك أمر اعتاد عليه محمد عبده وغيره من كبار كتاب عصره ، بمن فيهم المويلحي نفسه .

ولكل هذه القرائن نميل إلى نسبة هذه المقالة - المقدمة إلى محمد عبده .]

(١٢) ظهرت لهذا الكتاب المصادر طبعة ثانية عام ١٩٨٦ بتحقيق احمد حسين الطماوي ، عن المكتب العربي للاعلام والنشر بالقاهرة .

إنَّ منَّا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلى ما هي عليه من سوءِ الحال مروق وضلال . وليتهُ مع ذلك يكتفي من هداهُ بالإمساك عن التنبيه ، بل يتطرف إلى تحسين القبيح وتزيين السوءِ وإطراءِ الذميم إلَى مثل ذلك مما يزيد الدولة تورطاً في المزالق ، وتوغلاً في الخلل ، وتخبيطاً في الفساد ، وشططاً عن السداد ، ويتبجَّح بأن هذا هو الحب والاخلاص والولاءُ . فيا ليت شعري ما عسى أن يكون البغض والغش والتلبيس لديهِ بعد هذا . وقد لا يبلغ العدو من عدوهِ بالحرب والقتال ما يبلغ منهُ بهذا التورط والتضليل .

ولا أقبل أن انساناً يعمل عَلَى توريط دولتهِ إلى هذا الحد وهو صحيح المزاج ، فإن النفس لا ترضى من عز الملك بديلاً . فهي بطبيعة الوجدان لا تنبعث إلى ما فيهِ وبال ملكها وتدمير سلطانها ، بل هي متجهة بفطرتها إلَى تأييد دولتها وسلامة عرشها . وإنما ما ذكرناهُ هو مذهب قوم استؤجروا عليهِ لسقوط مروءَاتهم وفساد مزاجهم .

وقد يحتج لنفسهِ صاحبِ هذَا المذهب لدفع الخجل أو تلطيفهِ بأن في تنبيه الدولة دلالة لعدوها عَلَى مغامزها ، وهو مستوفز يترقب فرصةً للوثوب عليها . فليس المنبهُ إلاَّ كرائد العدو ، فهو يجلب عليها الضرر من حيث يقصد النفع . وذلك فعل الصديق الجاهل . فمن الحزم تعظيمها في عين عدوها ، حتى يقع في روعهِ أنها قويَّة منيعة الجانب ، فييأس منها ، وينقطع طمعُه فيها . ولعل الله بعد ذلك يبعث فيها منبهاً فتنبعث إلى لمِّ شعثها ، وتقويم أوَدها ، وإستعادة مجدها الأول وسؤددها التالد .

وهذا الإحتجاج غش وتدليس أيضاً . أمَّا أولاً فلأن عدوها متنبه يقظ متأمل . فهو أبصر بمغامزها ، وأخبر بدخائلها ، بل مطلع منها عَلَى ما لم تحط بهِ خبراً . وإنما تصادم المطامع فيها أوقف كل عدو يترقب غفلة الآخر أو اشتغالهُ بسواها ، أو يحاول التمالؤ مع ثانٍ ليتناصر عَلَى قطع الطريق إليها ويتساهماها . فليس في تنبيهها ما يكشف للأعداءِ شيئاً فيها قد كان عنهم مستوراً . بل لو تنبهت لوجدت من تصادم المطامع فرصة تمكنها من الاستدراك . وأما ثانياً فلأنهُ إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها ، وهي بادية للعيان ، فأهون بهِ عدوًّا . إذ لا يبلغ الجهل من دولة هَذَا المبلغ وهي في عالم الأحياءِ . وأمَا ثالثاً فلأنهُ إذا خفي عَلَى

الدولة عاقبة التنبيه ، كان الخوف عليها من التمادي على الخلل أشد ، فإنه أعجل من العدو سيراً وأسرع بطشاً وأسوأ تأثيراً . على أن قارعة العدو قد تدفع أو يحتال لها ، ولا دافع ولا حيلة لقارعة الغفلة وسوء التدبير . وكذلك منا من يحسب أن تنبيه الدولة ضرب من العبث ، وإنما هو فضيحة من غير جدوى ، فقد أصبحت بحيث لا ينفع القول فيها ، على أنها قد سدت سبيل النصح عَلَى نفسها لشدة حظرها على جرائدها ، ولمنعها الجرائد الأجنبيَّة من طروق ديارها ، ما دامت تحمل النصح إليها . ولئن طرقتها من سبيل خفي فإنها لا تخترق حجاب أمير المؤمنين . ولئن اخترقتهُ بحيلة من الحيل فإنها تصادفُ حول عرشه ملأً من الغاشين المحتالين الذين عدلوا به عن تدبير الملك ، وعرفوا كيف يقلبون النصح في عينه غشاً يعود عليه في ذات نفسه .

وهذا رأي من لا خبرة لهُ ولا دراية عندهُ بتأثير القول . فأما الفضيحة فلو كان في اتقانها خير بإطلاق لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولما كان الدين النصيحة لله ولرسوله والأئمة المسلمين كما قال صلوات الله عليه وكررها ثلاثاً ، ولما قال الفاروق رضي الله عنهُ : من رأى منكم فيَّ إعوجاجاً فليقوّمه . وأي شرع أم أي عقل يأمر باتقاء الفضيحة في درء المفاسد ؟ ومع كل ذلك فأي عورة مستورة منا حتى نتقي الفضيحة من كشفها ؟ وأما عدم نفع القول فمن المكابرة في الواقع . وهل كان كَوْنٌ أو فساد في بداوة أو حضارة إلّا بفعل القول من تأليف وتنفير ، وتحذير وتطمين ، ووعد ووعيد ، وتثبيط وتهييج ، وتسكين وتحريك ، إلى غير ذلك من أفانين اللسان وضروب البيان . وهل الأنبياءُ صلوات الله عليهم دعوا الخلق إلى الأديان بأكثر من قوة اللسان ؟ وهل الكتب السماويَّة تنزلت إلّا بالبيان ؟ وهل ثارت أحقاد أو سكنت والتحمت ملاحم وانفصلت ، وأُريقت دماءٌ أو حقنت بمثل القول وشبه اللفظ ؟ ولمَ أُقيمت المنابر ، وخطب الخطباءُ ، ووعظ الوعاظ ، وسعى المبشرون والدعاة ، وشرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ أليس إلّا لسر اللسان وحكمة البيان وفضل الكلام ؟ وبالجملة فهل في الدنيا شيءٌ من عظائم الأمور إلّا وهو غرس اللفظ وحصيد النطق ؟ فالأمر في ذلك أوضح من أن يحتاج إلَى إطناب . وانما ليس لثمرة القول إبان محدود . فقد تسرع وقد تبطيءُ . وربَّ رجل يتكلم كلمة لا يؤْبهُ لها في جيله فتثمر في جيل آخر ثمرة يتمتع بها أهل

الأرض جميعاً . فإدعاءُ أن الدولة لا ينفع فيها الكلام حماقة وجهالة .

وأما الحظر على الصحف الداخليَّة ومنع الخارجيَّة من طروق الديار فهو قول ضعيف الحيلة . أما ترى من هو من أعظم الملوك لا تكاد تقع يدهُ أينما وضعها إلاّ على كتابات الطوائف تارةً تحت وسادة منامه ، وأخرى في صُحْفَة طعامه ، ومرة على مكتبه ، وحيناً بين دفتي كتبهِ ؟ فلو صحت منا النيَّة وصدقت العزيمة ما أعوزتنا حيلة ، ولا بقي في نفسنا نُصْحٌ مستور عَلَى أمير المؤمنين .

وأما الملاءُ[١٣] الذي دار بعرش الخلافة فأهون من الهوان . وليس اعتقادنا فيه القدرة عَلَى قلب النصح غشّاً إلّا وهماً منشأهُ دوام قربهِ من عظمة أمير المؤمنين ، مع ما هو عليهِ ممَّا يوجب إبانتهُ واقصاءَهُ . ومهما يكن من قدرتهم عَلَى مقاومة الحقائق بالشعوذة فإن منْ أساليب الكلام ما لا تنفع معهُ شعوذة ، ولا يأتي عليهِ سحر ، ولا تدفعهُ حيلة . وبالجملة فالحق أكبر من أن يكافح . ولئن ثبت الباطل أمامه مرة ، فقلما يثبت أخرى . ومآلهُ إلى الفرار على كل حال . وحينئذٍ فترك النصح تعللًا بذكر الملاءِ هو من قصور الرأي أو فتور العزيمة .

وإنَّ منا أيضاً من يزعم أن داءَ الدولة قد ازمن وتأصل بعد أن استفحل وفشا في عروقها ، وانبسط وسرى في دمها ، وامتد وتشعب في أعصابها ، وصار لا يرجي برؤهُ حتى يعالج ، بل لا يؤمل تلطيفهُ حتى يداوى ، كما قطع بذلك حذّاق أطباءِ السياسة . عَلَى أن داءها يستوي في معرفته الطبيب وغيرهُ . كما يستويان في معرفة الأكمه والأعرج والمجدوع وأمثالهم من ذوي العاهات المفضوحة . وإذاً فالنصح لا يورثها إلا التنغيص . ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك .

وهذا ما عليه كثير من كبار الدولة . وهو يأس استحلوا به تناهب أموال الدولة والمسلمين ليدخروها وقايةً لهم وأهليهم بعد انحلال الدولة . خاب ظنهم وكذب حلمهم ! وما الداعي ـ حاسبهم الله ـ لهذا اليأس والدولة بحمد الله لا تحتاج في استرجاع عظمتها إلى غير لفتة واحدة من أمير المؤمنين ؟ فما عليهم لو بذلوا جهدهم ، بل ما لهم لا يبذلون نفوسهم في تلك اللفتة عوض إفراغ وسعهم في اغتيال أموال المسلمين ، فإن نجحوا كانوا مشكورين ، وإن لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين . وما

(١٣) الملاء ـ بكسر الميم ـ هو الممالاة .

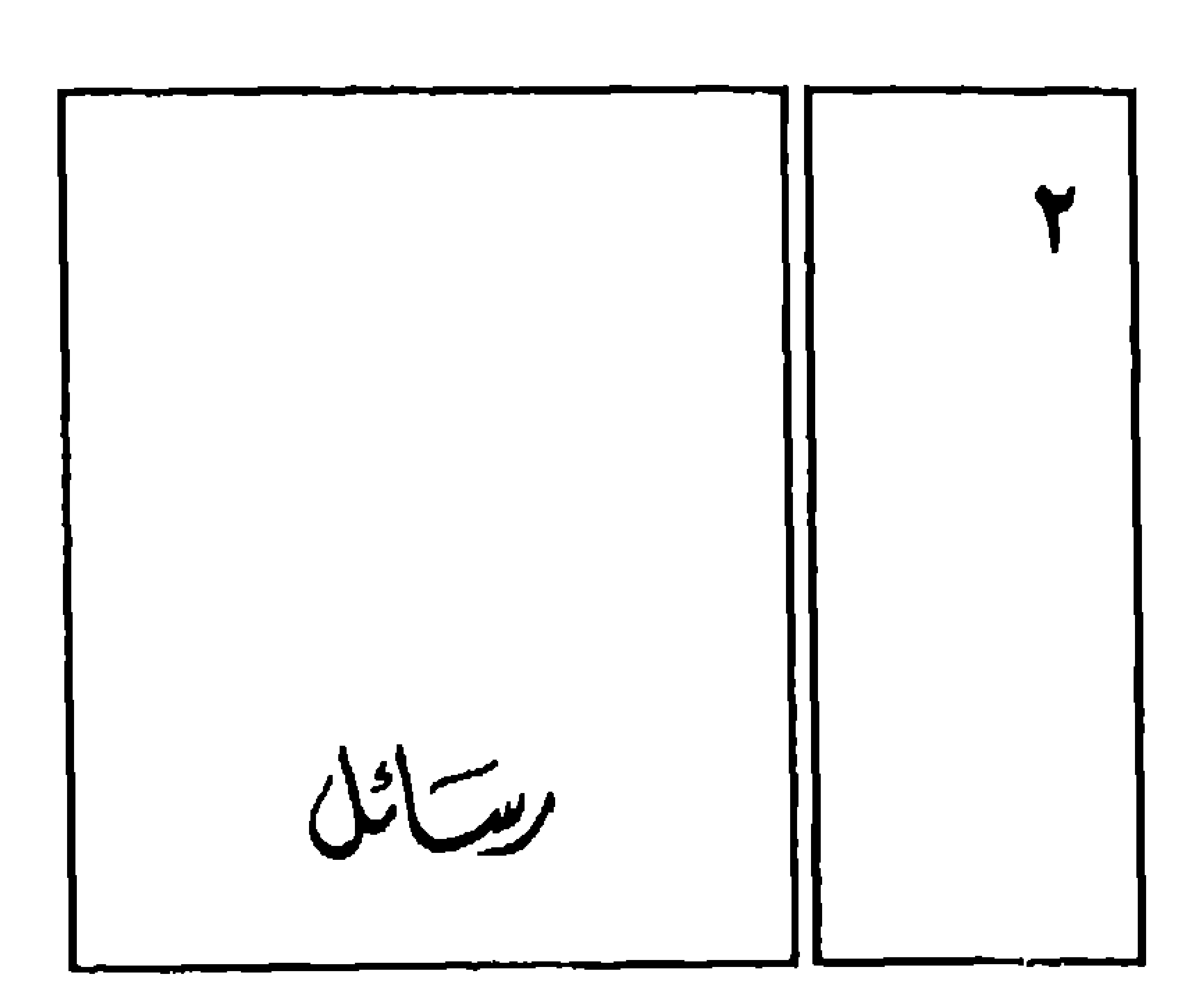
يدريهم لعل الله عند العزم وحسن القصد يخلق من الضعف قوة . فكثيراً ما كان ذلك . وليس بعزيز أن يكون أصلح الله شأنهم أو عوّضنا خيراً منهم رجال من أولي العزم تهون عليهم نفوسهم في مصلحة الدولة وعامة الأمة .

وبعكس هؤلاء فئة ترى أن الدولة بريئة من العيوب قويّة لا ضعف بها . وإنما تحَازُبُ الأعداء عليها وتمالؤهم على اضطهادها ، وتقومها من عناصر متخالفة لا تنفك تتنافر ميلاً إلى الانفكاك ومساعدة الأعداء لتلك العناصر كلما شغبت ـ كل ذلك خيل لنا أن الدولة هرمت ، وخارت قواها ، وانحلت عزائمها . وليس الأمر كذلك في الواقع . ولو كان مكانها أعظم دولة من دول أوربا ما جلدت على احتمال ما هي تحتملهُ ، ولا صبرت لمعاناة ما تعانيه . واذاً فلا يرميها بالضعف ولا يتهمها بالخلل إلاّ عدو يريد بث الفساد بينها وبين تبعتها ، أو تقوية جأش أعدائها عليها ، وإن ظهر بمظهر الناصح الأمين .

وما أعظم هذا الرأي وقعا في ذوق السذّج الذين لا إشراف لهم على الحقائق، حيث يقوم به لديهم عذر الدولة عند طأطأة رأسها لكل نازلة تضع من قدرنا، وتدك طود شرفنا. وهي قد تكون أقل مما يسعنا دفعه. ولكن ما ابعده من الحقيقة، وما أقصاه عن الصواب، كما لا يخفى على من له إلمام بنسب الدولة وموازنة قواها. فان دولتنا في ميزان الدول العظام أخفهنَّ على الاطلاق كفةً وأقلهنَّ رجحاناً. ولا يناقش في ذلك الا من هو بمعزل، عن العالم. اما الاعتذار عنها بتحازُب الأعداء، وتخالفُ العناصر ، فهو الحجة عليها . ولولاهُ ما رُميت بالتقصير ، ولا احتاجت إلى النصح والتنبيه . كما أنهُ لولا مثلهُ في جميع الدول ما اضطررن الى تجنيد الجنود ، واقامة المعاقل والحصون ، وبذل الأموال الطائلة في الآلات والاستعدادات . وهل الدنيا من أول نشأتها إلاّ على هذا الحال ؟ وهل كانتٍ فنون الحرب واختراع آلات القتال إلا لهذا السبب ؟ وحينئذ فليس بغاش من يستلفت الدولة إلى ضعفها ويستنهضها إلى تدارك شأنها بل هو الناصح الأمين . فليضع نفسَهُ كل رجل من رعيتها حيث يريد .

هذا ، وحيث أن لكل معلول علة ، ولا يمكن استئصال المعلولات إلاّ باستئصال عللها ، فعلى من يريد أن يضع نفسهُ من الدولة موضع الناصح الصادق أن يبحث عن علة ضعفها وأصل خللها ، ثم يحاول

استئصـــال الأصل بما يراهُ ناجحاً من عقاقير النصح ، ترياقاً كان أو سموماً . فإنهُ إن فعل يوشك أن ينجح إن شاءَ الله .


٢
رسائل

رسالتان إلى جمال الدين الأفغاني

[كان محمد عبده اخلص تلميذ لاستاذه الافغاني ، وكان اطول اقرانه ملازمة ومعاشرة للاستاذ . ومحمد عبده هو اول من وضع سيرة لاستاذه بناها على « كمال الخبرة وطول العشرة » كما قال [١٤] . وهو ايضا ابرز تلاميذ الافغاني واهمهم في مجال الإصلاح والاستنارة .

وقد كانت السيرة التي وضعها محمد عبده والحواشي التي نثرها رشيد رضا حولها في كتابه الضخم عنه عملاً من اعمال الحب ، على الرغم من قصر هذه السيرة وما تضمنته من ملاحظات نقدية . ومثلما كان الافغاني رجلاً عاطفياً في الاساس كان تلميذه عبده رجلا عاطفيا كذلك ، اغدق في سيرته وحواشيها الكثير من الصفات على استاذه حتى لكانه يطبق على نفسه بيت الشعر المشهور القائل :

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم ان يكون رسولا

ومن هذه الصفات والصور البيانية التي اغدقها على استاذه قوله على سبيل المثال : « لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو اقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » [١٥] .

ومع أن العصر الذي عاش فيه الرجلان كان من الناحية الادبية والبيانية عصر مبالغات وإسراف في المديح فقد عبر محمد عبده في تصويره لاستاذه عما يجيش في نفسه ، فضلا عن انه ظل حتى نفي من مصر في اواخر ١٨٨٢ اقرب في كتاباته إلى المتصوفة الذين يتدفقون حماسة وحبا لما يعتقدونه ويحدسونه . وهو لم يتحول عن هذه الحماسة والحب الصوفيين إلا بعد عودته من منفاه ، اي بعد نحو ست سنوات من الغربة والتجربة العريضة في الشام واوربا .

لقد واجه رشيد رضا هذه القضية فلم يقدرها على وجهها الصحيح . فقد عثر في اوراق محمد عبده بعد وفاته على مسودة رسالة مطولة كان قد كتبها في مطلع منفاه لاستاذه من بيروت سنة ١٨٨٣ . ولكنه وقف

---

(١٤) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٢٧
(١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٤

حائراً امام هذه المسودة حين اراد نشرها . ثم خلص من حيرته بالحب لا بالعلم ، حين قاده حبه لمحمد عبده إلى حذف الكثير من عبارات رسالته لأستاذه ، واوردها بعد مقدمة اعتذارية قصيرة قال فيها :

« ومن كتـاب له إلى السيـد جمـال الدين عقب النفي من مصر إلى بيروت ، وهو اغرب كتبه ، بل هو الشاذ فيما يصف به أستاذه السيد ممـا يشبـه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم . وفيه من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه ، وإن كان من قبيل الشعريات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة » [١٦] .

ومع أن رشيد رضا حذف من هذا النص ما فيه من إغراق وغلو على حَدّ تعبيره فلم يحاول ان يفهمه على وجهه الصحيح الذي فهمه رجل آخـر مثـل العقاد الذى لم يعاصر الافغاني ولا محمد عبده . فقد قال العقاد في تفسير هذه الرسالة في مسودتها الناقصة :

« الأسلوب هنا هو الأسلوب الذي لم يتكرر في خطاب او مقال للأستاذ الامـام، لانه اسلوب الساعة التي لم تتكرر في حياته. وليست مما يتكرر في حياة احد ، إذ كان كل ما يستوحيه في تلك الساعة شعورا مشبوبا يتوقد بحماسة الشباب وحماسة الثقة التي بقيت له في منفاه بعد ضياع الثقـة باقرب الأقربين واولى الأخصاء بالصدق والوفاء ، ويذكيها من وجدانه الحي ذلك الشوق المتجدد إلى أستاذه بعد انقطاع العهد وجلاء الغمة في اعقاب الثورة عن ذلك المصير الذي له ما بعده . وقد يكون ما بعده جهاداً آخر يرجى له من الفلاح ما لم يكتب للأستاذ ولا لتلميذه في جهادهما الأول . فإن تكن في الأسلوب غرابة تلحظ في سائر الأحوال . فقد كان الاغرب أن يجري به القلم في تلك الحال مجرى المتكرر المالوف » [١٧] .

ويؤكد ذلك ما جاء في الرسالتين الأخريين اللتين احتفظ بهما الافغاني في اوراقه ، وهما رسالتان لم يرهما العقاد . فقد خلت هاتان الرسالتان الاخريان من الأسلوب التواضعي إلى حد العبادة الذي بدا واضحاً في هذه الرسالة ، حيث بدا محمد عبده على طبيعته وفطرته البسيطة التي يحركها الشوق نحو نحت المديح وكيل الثناء والاسراف في العبادة .

لقد اظهرت أوراق الافغاني الرسالة في صورتها النهائية التي تلقاها الأستاذ من تلميذه . وبمقارنة هذه الصورة النهائية بالمسودة لا نجد فرقـا يذكـر سوى ما حذفـه رشيـد رضا من المسودة بدعوى الإغراق والغُلو ، او حِرْصاً على مشاعر البعض ممن مستهم كلمات محمد عبده القاسية احيانا .

هذه هي الرسالة الأولى .

اما الرسالة الأخرى فقد كتبها عبده من منفاه في بيروت أيضا ، ولكن بعد أسابيع من تاريخ كتابة الأولى . وفي هذه الرسالة الاخيرة يبدو وقد

---

(١٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩٩

(١٧) عباس محمود العقاد : محمد عبده ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٣٢

صرف طاقة الشوق العارمة التي امتصتها الرسالة الاولى ، وإن كانت طاقة الحب والإعزاز قد بقيت .

وقد حاول المستشرق الانجليزي إيلي كدوري ان يفسر بعض عبارات الرسالة بما يخرجها عن سياقها ويضفي عليها ما ليس فيها . فقد كتب محمد عبده لاستاذه معلقاً على مقاله في الرد على الفيلسوف الفرنسي رينان : « لا تقطع راس الدين إلا بسيف الدين » واخذ كدوري هذه العبارة قرينة على إلحاد الافغاني وتلميذه معا . ولكن وضع العبارة في سياقها ، والرجوع إلى رد الافغاني على رينان يفسران معنى العبارة على نحوها الصحيح . فقد ميز الافغاني في رده على رينان بين الصدر الأول للإسلام والعصور التالية . وذكر محمد عبده في تفسيره هذا التمييز ان الافغاني ميز بين « إسلام القرآن واسلام الحكام »[18] ومعنى هذا ان القرآن هو « سيف الدين » ، وهو وحده الذي يفحم الحاكم او الخليفة ، راس الدين ، لانه يترأس المسلمين . وهذا ما ينتهي إليه الافغاني في رده على رينان ، لان القرآن – في رايه – لا يعطل العلم او يقف في وجهه ، ولكن ما يعطل العلم هو الحكام الذين لا يعملون بما جاء في القرآن من حض على العلم والتعلم .

لم ينس محمد عبده في رسالته الثانية هذه ان يذكر استاذه بان خادمه ابا تراب الذي رافق المنفيين إلى بيروت قد اساء فهم ابراهيم اللقاني ، تلميذ الافغاني وزميل عبده ، في حين ان الاخير لم يدخر وقتا ولا مالاً في سبيل رعاية الخادم .

بقيت بعد ذلك رسالة اخرى ثالثة لم ترد باصلها العربي في المجلد الذي ضم وثائق الافغاني واوراقه ، وإنما وردت منقولة إلى الفارسية عن الاصل العربي المحفوظ بمكتبة البرلمان الإيراني . وتاريخ هذه الرسالة ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وقد كتبها محمد عبده من تونس حول تاسيس جمعية « العروة الوثقى » . ويبدو انه جرت بين الأستاذ والتلميذ قبل ذلك التاريخ مراسلات حول الموضوع ، وان الأستاذ طالب تلميذه بالسفر إلى تونس لاستطلاع الراي ، وإنشاء فرع للجمعية في تونس ، والحصول على بعض المال لصحيفة الجمعية .

ويقول محمد عبده في رسالته :[19]

« استطعت ان التقي هنا العلماء ورجال الدين . وقد عرفتهم بنا وقلت لهم :

«إن العروة ليست اسم الصحيفة، وإنما إسم جمعية اسسها السيد في حيدر اباد ، ولها فروع في كثير من الاقطار ، لا يدري احدهما عن الآخر شيئا ، ولا يعرف هذه الفروع إلا الرئيس وحده . كما قلت لهم إننا

---

(١٨) مجلة المنار : ج ع م ٢٦ في ١٦ ابريل ١٩٢٣ ، ص ٣٠٧

(١٩) اسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين . مطبوعات جامعة طهران ، ١٩٦٣ ، ص ص ٦٣ – ٦٤

راجع ايضا :

Homa Pakdaman : Djamal ed-Din Assad Abadi , dit Afghani , Paris , Maisonneuve et Larose , 1969 , PP 103 -105

نرغب اليوم في تاسيس فرع جديد في هذا البلد »

ويتحدث بعد ذلك عن مقابلاته مع بعض المشايخ مثل الورطاني وابو حجاب والسنوسي . ويضيف :

« وقد وافقوا . وشرعت في تاسيس هذه الجمعية في تونس .. (ولكن) المال غير موجود . لقد طرقت جميع الأبواب ، ولكن بلا جدوى . ولكي ننجح فلا بد من المضي في الاصرار . وهذا ما لا اجده أمرا مقبولا »

ويروي محمد عبده في رسالته إنه اتخذ لنفسه اسما مستعارا في تونس ، وهو « العربي بسيس » وإنه ينتظر من استاذه المراسلة بهذا الاسم . ثم يختتم رسالته فيقول :

« إنهم يظنون هنا اننا نملك كنزاً كبيراً ، وان قوة مجهولة تتولى إمدادنا بما نريد . وقد سرتني هذه الظنون اكثر مِمَّا سرني الكنز نفسه » .

تمت هذه المهمة التي قام بها محمد عبده بعد تركه استاذه في باريس . ويبدو انه بقي في تونس بضعة اسابيع اخرى قبل عودته إلى بيروت ، وانه قام ببعض الاتصالات الاخرى في سبيل الجمعية وصحيفتها التي كانت قد توقفت قبل شهرين من رحلته إلى تونس .

وإذا كانت هذه الرسالة ـ بوجه خاص ـ رسالة عمل إذا صح التعبير فقد كانت الرسالتان ـ الأولى والثانية ـ رسالتي شوق واحترام وحب يصل إلى حد العبادة ، من تلميذ مريد إلى استاذ تمكن من قلبه وعقله على السواء .

من الطريف ان الرسالة التي سنطالعها بعد قليل سبق ان نشرها محمد رشيد رضا في الجزء الثاني من كتابه الضخم « تاريخ الأستاذ الإمام » ومن الواضح ان الذي نشره كان مسودة الرسالة . أما أصلها فهو الذي سنطالعه . ولكن رضا نشر المسودة بعد أن حذف منها الكثير من العبارات ، واشار بامانة إلى ذلك الحذف المتعمد الذي قام به على سبيل التخفيف والتلطيف وعدم الإحراج [٢٠] . وقد ميزنا العبارات المحذوفة هنا بالبنط الأسود .

وليس من الصواب بالطبع ان نحاسب محمد عبده بهاتين الرسالتين وحدهما . فقد كتبهما وهو في شرخ الشباب والحماسة ، فضلا عن انه بدأ حياته بالتصوف الذى بان اثره هنا بوضوح . فقد إنضم الى حلقة أحد المتصوفة في مصر عندما كان صبيا ، قبل أن ياتي الافغاني إلى مصر . فتراث الصوفية إذن في الحلول وتقديس المريد لشيخه كان يعشش في ذهن محمد عبده ، وهو يكتب رسالتيه هاتين ، فضلا عن شوق التلميذ الى استاذه الذي ابعد عنه.]

---

(٢٠) رشيد رضا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ص ٥٩٩ ـ ٦٠٣ . ويلاحظ ان المسودة وردت ايضا بنصها المحذوف في الجزء الاول من الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، تحقيق الدكتور محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ص ٥٧٥ ـ ٥٧٨

الرسالة الأولى

مولاي الأعظم حفظه الله وأيد مقاصده

ليتني كنت أعلم ماذا اكتب إليك . وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك . صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادنا صورها الكمالية ، وانشأتنا في احسن تقويم . فيك عرفنا انفسنا ، و بك عرفناك ، وبك عرفنا العالم اجمعين . فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب، وهو علمك بذاتك، وثقتك بقدرتك و إرادتك، فعنك صدرنا ، و إليك إليك المآب .

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت منك عزمة أتعتع بها الثوابت ، وأذل بها شوامخ الصعاب ، وأصدع بها جم المشاكل ، وأثبت بها في الحق للحق ، حتى يرضى الحق . وكنت أظن قدرتي بقدرتك غير محدودة ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدودة . فإذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد . تناولت القلم لأقدم إليك من روحي ما أنت به أعلم ، فلم أجد من نفسي سوى الأفكل [٢١] والقلب الأشل واليد المرتعشة والفرائص المرتعدة ، والفكر الذاهب والعقل الغائب ، **كأنك يا مولاي منحتني نوع القدرة . وللدلالة على قوة سلطانك حصرته في الأفراد فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل هذا ، مع انني منك في ثلاث أرواح لوحلت إحداها في العالم باسره وكان جمادا لحال انسانا كاملا . فصورتك تجلت في قوتي الخيالية وامتد سلطانها على حسٍّ المشترك ومعي رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال .**

فإليها ردت جميع محسوساتي ، وفيها فنيت مجامع مشهوداتي . وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا ، وانرت بها عقولنا ، ولطفت بها نفوسنا ، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في اشخاصنا ، فكنا أعدادك وأنت الواحد ، وغيبك وأنت الشاهد . ورسمك الفوتغرافي الذي أقمته في قبلة صلاتي رقيباً على ما اقدم من اعمالى ومسيطرا على في أحوالي . وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ، ولا مضيت إلى غاية ، ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في عملي إحكام ارواحك ومعي ثلاثة

---

(٢١) الرعدة .

فمضيت على حكمها سعيا في الخير وإعلاء لكلمة الحق وتأييدا لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة . ولست في ذلك إلَّا آلة لتنفيذ الراي المثلث ، ومالي من سوائي إرادة حتى ينقلب مربعا .

غير أن قواي العالية تخلت عني في مكاتبتي إليك ، وخلت بيني وبين نفسي التزاما لحكم أن المعلول لا يعود على علّته بالتاثير . عَلَى أنَّ ما يكون إلى المولى من رقائم عبده ليس إلا نوعا من التضرع والابتهال ، لا أحسب فيه ما يكشف خَفاء أو يزيد جاها . ومع ذلك فإني لا أتوسَّل إليك في العفو عما تجد من قلق العبارة وما ترى مما يخالف سنن البلاغة بشفيع أقوى من عجز العقل عن إحداق نظره إليك ، وإطراق الفكر خشية منك بين يديك . وأي شفيع أقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك المغلوِّبي هباء .

إني لا أحدثك يا مولاي عن شيء مما أصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيانه أخي في حبكم إبراهيم أفندي اللقاني سوى بعض ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك ، وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك . فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء عقب جلائك بقوة جاههم وشدة بأسهم ، فأرغموا العقول على الاعتقاد بالمحال ، وألجأوها للتصديق بما لا يقال ، حتى إنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا على تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها إلى العمل بالشدة والأخذ بمبادرة الحدة . ولم يلبث أن وصلت إليه بعدما كانوا حجروا علي في بلدي ، وحظروا علي الدخول في المدن نحو أربعة أشهر . ففي أول إتصال برياض باشا جلوت عليه الأمر ، وكشفت له من الحقيقة ما خفي ، حتى زال ما لبَّس المُبْطلون ، وبطل كيدهم وماكانوا يعملون . ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والأمراء ورجال الحكومة ، بل وكثير ممن كان يدعي الانتماء إلى حضرة مولانا المعظم .[٢٢] وقعدت من كل أمير مصعد النفس فلا ينطق إلا بما تريد حكمتك ، ولا يعمل إلا ما تشاء إرادتك ، فكأنك وحقك كنت وأنت في الهند بين أظهر المصريين ساعياً فيهم إلى مقاصدك العالية ، طالبا بهم أوج السعادة وذروة المجد والفخار .

وهكذا ضُممْتُ إلى كل من كان ينتسب إليك ، صادقا في الانتساب أو

---

(٢٢) إشارة إلى الافغاني نفسه .

كاذبا تحسينًا للظن وإيثاراً لجانب العفو والكرم . لهذا ألقاني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأدنياء اديب اسحق وسليم النقاش وسعيد البستاني والهلباوي ومشاكليهم من اللئام ، فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت عليهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة (لكنهم لم يرعوا عهدا ولم يحفظوا ودا . ولا حاجة لي الآن إلى ايضاح ما صدر منهم خيانة ولؤما ، فإن مولاي اعلم بمسيحيي الشوام ، وجميعهم مع بعض المصريين من إصطبل واحد) .

والفت لحبك ممن حرم الشرف بلقائك قبيلاً[٢٣] ليس بالقليل ، يجلون قدرك ، ويعرفون لك فضلك . وكنا وإخواننا من المكانة في قلوب الناس كما شرح لك إبراهيم افندي . ولكن هذا لم يلهني عن طلب الانتقام لك والأخذ بثارك من الوغد اللئيم والفَدْم العظيم[٢٤] . وكدت أصل إلى البقية مما قصدت من طريق مألوف ومذهب معروف وغير معروف ، لولا غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الأنبياء والسالكين مناهج الجبارين ، اللافظين لفاظات العلماء ، المتبطنين طباع الجاهلين ، انتحلوا طريقنا في الدعوة إلى الحرية . وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من إقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة القانون وهم رسل الفوضى وجرذان النظام . وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلى تلاميذك . واشتد معهم في التعصب أولئك الأنذال[٢٥] الذين قدمنا ذكرهم ، عندما رأوا بعض رجال الحكومة يميل إلى أهوائهم ، ويمدهم في بعض غيهم . غير أن مدتهم في العناد كانت قصيرة . ولم يمض إلا قليل حتى محصنا من قلوبهم وجلونا من بصائرهم ، فكادوا يشيمون ضياء الحق ، لولا أن أحاطت بهم ظلمات الغرور والغي . ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ونديرهم كالآلات لغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، إلى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال ، فطلبنا بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء ، وينقذ العباد من طول العناء . ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الأرض

---

(٢٣) اي جماعة .
(٢٤) إشارة إلى الخديو توفيق .
(٢٥) خففت الكلمة إلى : الاشرار عند رشيد رضا

والسماء ، وكنا ندرك بهم خلاصا حسنا ، وانتقاما شريفا ، لكن لسوء البخت كان أحمد عرابي كما وصف الصابي أبا تغلب بن حمدان عندما قاتله عز الدولة بن معز الدولة [٢٦]، وهزمه ، حيث قال فيه إنه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والإضاعة ، ولالقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة ، المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة ، ولا كان في هذين الأمرين بالبر التقي ولا الفاجر القوي . بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره ، قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد . أ هـ

وأزيد على ذلك مع توفير الأسباب وتفتح الأبواب ، وظهور الأمر للعيان ، وانجلائه لأذهان الصبيان ، واجتماع جميع القلوب عليه ، ونزوع الأهواء على اختلافها إليه ، فكان ما كان من العاقبة السوءى . ولسير خادمكم [٢٧] في تلك الحوادث نبأ طويل ، إذا أردت يا مولاي أن أقدم لك به تاريخا مختصرا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الإشارة .

ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات على ما حكم به الشقي الغبي[٢٨] ، لا لذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه . فقد قضت حكمتك القائمة منّا مقام الإلهام في قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة والذمة الطاهرة . وإنما ذلك أثر الحقد القديم نتيجة الرأي العقيم . ووالله يا مولاي لو فصلنا له من جلودنا ثيابا ، وصنعنا له من لحومنا كبابا ، وصببنا له من دمنا شرابا لما كان لنا مفر من غدرته عند قدرته ، قاتله الله . فها نحن سالكون في سننك وعلى سنتك . وكنا كذلك ولا نزال إلى إنقضاء الآجال . ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوع أبينا لهم الذل وأنفنا لهم الضيم فأتينا بهم معنا إلى حيث أقمنا لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس ، لأسعد بالإقامة في خدمتك ، وأفخر بذلك على العالمين .

ولما أعلمه من نفسي وما أتيقنه من يقينك ، وما أيدته أعمالي وأعمالك وأقوالي وأقوالك لا أتكدر مما أشرت إليه في كتابك إلى أبي تراب حيث طعنت في ثقتك بالمصريين ، وبالغت حتى سحبت الطعن إلى خادمك كاتب

---

(٢٦) معز الدولة هو الامير البويهي الذي ادخل الخلافة العباسية تحت النفوذ البويهي وابو تغلب من امراء الموصل الذين لجا إليهم الخليفة العباسي « المتقى » .. انظر محمد عمارة . هامش ص ٥٧٦

(٢٧) عند رشيد رضا : ولسيرنا مع حذف كلمة : خادمكم .

(٢٨) الصفتان محذوفتان عند رشيد رضا

الأحرف وابراهيم أفندي وزدت في المبالغة فأنفذت طعنتك بالداهية الزرقاء ، والبلية الحمراء . أما اختلال ثقتكم بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا . فقد نقضت عهدك وحالَفَتْ عدوك فاستبقته في الوجود وأنت موجود ، أرغم الله انفها وجعلها طوع يدك ترمي بها من تشاء من أعدائك . أما ما يتعلق بنا فإني على بينة من أمر مولاي ، وإن كان في قوة بيانه مايشكك الملائكة في معبودهم والأنبياء في وجههم ، ولكن ليس في استطاعته أن يشكك نفسه في نفسه ، ولا ان يقنع عقله الأعلى بالمحالات ،وإن كان في طوعه ان يقنع بها من اراد من الشرقيين والغربيين .

وما حكم به سيدي من سلب الوفاء عن المصريين ربما تضافرت عليه الأدلة ، وتشهد لنا وله عليه الحوادث ، غير أننا لسنا أولئك . فقد أخرجنا المَوْلى عن طباعنا وأنبتنا نباتا حسنا غريبا لا يغتذى بغذاء تلك الأرض ، ولا ينمو بهوائها ، وإنما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره ما يقوي يه قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره ، وإلا ذبل ومات واستؤصلت جذوره ، ورمى به إلى خارج البلاد .

وإني أعلم أن كلامي لا يزيد في يقين مولاي شيئا ، وسكوتي لا ينقص منه ، فلنعد عن هذا ، ونستمنح من كرمه الواسع أن يمن علينا بأمرين ، أحدهما إرسال رسمه الفوتغرافي الجديد ، فإن هذا الخادم كان عنده نسختان من الفوتغرافية الأولى إحداهما أخذها أعوان الضبطية من بيتي عندما أودعت السجن كما أخذوا كتاب الماسون بخط مولاي المعظم ، والثانية كان استجدانيها سعد أفندي زغلول ، وهو من خواص محسوبيكم ، ولشفقتي عليه تركته له أياما ليعيش عليها أعواما . والثاني أن يتابع إرسال ما ينشره من فصوله السياسية والأدبية في الجرائد أيا كانت . فقد أعددنا دفاتر متعددة لنقل ما يوجد منها في أي جريدة ، وكتبنا ما نشر في جريدة النحلة وأول ما أدرج في البصير . وإلى الآن نبحث عن مقالة الشرق والشرقيين ، ولا نجدها .

وأضفنا إلى ذلك ما كان ينشر في جريدة مصر في الأيام السابقة من جميع الجمل التي جاء بها فكر سيادتكم . ثم إننا نخبر سيادتكم خبرا تسرون به ، وهو أن أعيان المسلمين من أهالي بيروت وأمراءهم لم يالوا جهدا في إكرامنا والاحتفاء بنا . ونخص بالذكر منهم السيد عبد

القـادر افنـدي القبـاني وأعضــاء عائلته ، وهم من ذوي البيوت الأصيلة ، رغما عن أنف صاحب الجوائب ، والحاج محيى الدين أفندي حماده رئيس مجلس البلدية ، وحسن أفندي بيهم ، وهو من أنبه الشبان وأعلمهم وأكتبهم وأشدهم ميلاإلى الحرية . وقد آلى على نفسه أن لا يموت حتى يراكم ما لم يفاجأ . وأما الأمير الشهم عبد القــادر الجــزائــري فقـد أمــر ولده أن يزور خادمكم هذا . وأتى لزيـارتي . وما كل هذا إلا من آثار فضلكم . فلكم الشكر على نعمة وصلت أو تصل إلينا وإلى أعقابنا من بعدنا . ونرجو من سعة كرمكم أن تمنوا على خادمكم بأسطر من خطكم الشريف يحفظها حيث يحفظ سرك ، ويودعها في مستودع حبك . والله يحفظك ويتم مقاصدك . والسلام .

خادمكم

محمد عبده

٥ جمادي الأول ١٣٠٠

الرسالة الثانية

مولاي المعظم أيده الله .
اليوم عرفت نفسي وكنت بها سيء الظن أرى ما سيق إلي أو يساق من الكرامة بين الناس إنما هو من أحكام البخت والاتفاق وغرور من السذج بنسبتي الى خدمة المولى الجليل . وكنت أتيه على العالمين بتلك النسبة ، وهي عنوان الفضل والكمال ، مكتفيا برسوخها في نفسي وتقررها في الأذهان ، وأقول دعوا الناس في غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض . أما الآن وقد حسبني الجناب العالي نتيجة لأعماله ، فإني أصدع بأفكاري قواعد الملكوت ، وأزعزع بهمتي أركان سطوة الجبروت ، وأدعو إلى الحق دعوة الحكيم ، وأذهب بأهل الرحمة مذهب الأب الرحيم ، خدمة لمقاصد مولاي . وإن يوم السعادة عندي أن يظهر لهذه الخدمة أثر أو ينشر عنها خبر . أما نهي السيد لعبده عن العقوق في الحقوق التي أوجبتها القرائح الذكية ، فمن حيث صدوره عنه أدب تتفجر منه ينابيع الخير والبركة ، ولكن من حيث توجهه إلى الخادم الأمين فهو من قبيل نهي الحق عن أن يكون باطلا ، والنور عن أن يكون ظلاما والكمال عن أن يكون نقصا . بل نهى الانسان عن أن يكون حمارا .

سبحان الله ما أسهل أن نماثله وأيسر أن ندين به حتى يبلغ الكتاب أجله . بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في الدبا [٢٩] من دفاعكم عن الدين الاسلامي (يالها من مدافعة) رداً على مسيو رنَان فظنناها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول فحثثناً بعض الدينيين على ترجمتها ، لكن حمدنا الله تعالى إذ لم يتيسر له وجود أعداد الدبا حتى ورد كتابكم واطلعنا على العددين ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن افندي بيهم فصرفنا ذهن صاحبنا الأول عن ترجمتهما. وتوسلنا في ذلك بأن وعدناه أن الأصل سيحضر فإن حضر نسر ، ولا لزوم للترجمة ، فاندفع المكروه ، والحمد لله نحن الآن على سنتك القويمة : لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين . ولهذا لو رأيتنا لرأيت قعادا عبادا ركعا سجدا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

(٢٩) هي صحيفة Journal des debats الفرنسية التي نشر فيها الافغاني رده على رينان .

أسفت وتكـدرت ممـا رأيتـه في كتابكم إلي وإلى أبي تراب من اللوم الشديد على ابراهيم أفندي . وعلمت أن ذلك من سوء تبليغ أبي تراب ، علمـا أن الإبـراهيم افندي ليس موضعا للتهمة بما يشير إليه المولى في كتابه . وإني أحلف بحرمة سيدي إنه لم يصدر منه أدنى أمر يشتبه أو يخل بحقوق مولاه . فإن انتقاله من البيت الذي كان فيه لم يكن إلا بعد أن ظهر أثر الرطوبة في عينيه ، وخشي عليهما من الرمد ، فاستدعى أبا تراب للانتقال ، فأبى متعللا بأن أهل البيت يخدمونه . وليس في البيت الجديد من يخدمه ، فسهل عليه الأمر ، فأبى ، وصمم على البقاء . ولم يكن تعلله صحيحا في الحقيقة وإنما العلة الحقيقية هي ما تعهدونه فيه من الاحســاسات الصبيانية . أما السيد ابراهيم فقد قام بخدمة أبي تراب أحسن قيام . كان يرافقه في شدة البرد وكثرة الأوحال إلى الحكماء ومعاهد الأطباء مراراً عديدة قبل حضور مصطفى بيك . وكان يعجبه كأخ صديق ينـظر إليـه ويعامله معاملة المتساوين من جميع الوجوه . ولم يصرف عند الحكماء إلا ريالين فقط وبعض دراهم قليلة في أدوية ومراهم . وبعد حضور مصطفى بك كان العلاج مجانا بدون أُجْرَة . ومضى عليه زمن المرض ونحن جميعا نتعهده في أغلب الأوقات . وإبراهيم أفندى بعد انتقـاله كان يأتي إليه من قبل شروق الشمس إلى الساعة الرابعة من الليل ، ولا يتركه إلا وقت النوم . وكانت ثياب ابراهيم وكتبه وجميع لوازمه في أودة أبي تراب . ولم يكن في أودته الأخرى إلا فرش النوم لا غير . ثم إن أبا تراب معنا في جميع الأوقات إلا ما قل ، وإنا نعده كواحد منا ، منزلته منزلتنا ، إن مسه أحد بكلمة حسبناها في أعراضنا . أما ما أذكره في شأن أديب أفندي وأمرك أبا تراب بالتردد عليه فلعل فيه حكمة تخفى على عقولنا ، ورأيكم أعلى وأرفع . على أني أرى في الاجتماع إليه ضررا لنفس أبي تراب ، من حيث تغلب شهوته الحيوانية على قوته العقلية ، فالأولى به أن يكون بعيدا عن مثار الشهوات . وزادني كدرا أن أبا تراب عندما ذهب ليبلغ أديبا سلامكم أطلعه على المكتوب ، فقرأ منه ما ذكرتم في شأن ابراهيم افندي . وكان كدر ابراهيم على هذه أشد من كدره على سوء ما بلغ عنـه . وأبـو تراب عجـول في أخبـاره ، لم يخل من طيش الشرقيين . فالأمل أن لا تثقوا بما يكتب إليكم فيما يتعلق بشأن أتباعكم . فقد يغضبه ما لا يغضب ويرضيه ما لا يرضي . وليس بين غضبه ورضاه

إلا كما بين ضحكه وبكاه ، وهو ما بين لمحات البصر . أليس عجيبا أن ما نقله اليكم عني وأنا في حبس الحكومة المصرية قبل أن يراني كان متلقيا له عن محسن الجزار مع أني ما رأيته من نحو ثلاث سنين ؟ ثم بعد أن كتب اليكم ما كتب جاء لزيارتي في الحبس ولم يسألني عن شيء يتعلق بسيادتكم . وأظن أن حالة أبي تراب في الأخبار التي تكون من هذا القبيل لا تخفى على حضرتكم . فالرجاء أن لا تعتمدوا عليها ولا تعجلوا بتصديقها . فليس سهلاً على الصادقين في الانتماء اليكم أن يشعروا بأن شيئا كدر خاطركم من جهتهم وإن كان غير منطبق على الواقع . ونلتمس من واسع كرمكم أن لا تقطعوا عنا ما نطمئن به على صحتكم . والله يحفظكم .

محمد عبده

٨ شعبان ١٣٠٠

يهدي لسيادتكم مزيد السلام ويقبل أيديكم ابراهيم أفندي على اللقاني والشيخ أمين أبو يوسف من أهالي دمياط منفى في الحوادث المصرية ، والشيخ أحمد القباني من أفاضل بيروت ، والشيخ أحمد عباس من نبهائها وأرباب الأفكار الحرة ، وحسن أفندي بيهم وكل من له ميل إلى الحرية ودمتم في حفظ الله .

٨ شعبان ١٣٠٠ **محمد**

أربع رسائل إلى ويلفرد بلنت

[كانت علاقة الصداقة التي ربطت بين محمد عبده والمستعرب المستشرق الانجليزي الشاعر ويلفرد بلنت (١٨٤٠ ـ ١٩٢٢) من المتانة والاخلاص بحيث اثرت في حياة الرجلين وكتاباتهما ، ولا سيما في جانبها الخاص ببلنت ، كما سيتضح لنا في القسم التالي من الكتاب . وكان من الطبيعي ان تشهد هذه العلاقة مراسلات بين الرجلين . ولكن المنشور من هذه المراسلات قليل جدا ، وقد قام به بلنت نفسه في اربعة من كتبه ، هي بترتيب صدورها :

١/ التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر (١٩٠٧)
٢/ الهند تحت حكم ريبون (١٩٠٩)
٣/ جوردون في الخرطوم (١٩١١)
٤/ يومياتي (جزءان) (١٩١٩ ـ ١٩٢٠)

وفي هذه الكتب الأربعة الضخمة اورد بلنت بعض رسائل محمد عبده إليه ، مترجمة عن العربية بالطبع ، مركزا في نقله لها على الجوانب الموضوعية خارج الإطار الشخصي والإخوانيات . وتلقى هذه الرسائل ـ المستفيضة احيانا ـ كثيرا من الضوء على احداث تاريخ الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي . كما تلقي الكثير من الضوء ايضا على تفكير محمد عبده ومواقفه من الناحية السياسية بصفة خاصة .

لقد نقلت مجلة « المنار » وجريدة « كوكب الشرق » بعض هذه الرسائل خلال الثلث الاول من هذا القرن ، ثم نقلها محمد رشيد رضا في كتابه الضخم « تاريخ الأستاذ الإمام » الذي صدر عام ١٩٣١ . وبعدها تناقلها الجامعون لتراث محمد عبده ، ولكن فات الجميع ان يلتفتوا إلى بعض الرسائل الأخرى التي ظلت حبيسة الأصل الإنجليزي في كتب بلنت ، وعددها أربع رسائل ، ننقلها هنا بحرفها حسب تسلسل تواريخ كتابتها .

وتكشف الرسالة الاولى عن حماسة محمد عبده للثورة العرابية ، وبغضه للسيطرة التركية والشركسية ، وميله إلى الدعابة الساخرة . وإذا كان عبده قد وجه رسالته الثانية إلى زوجة بلنت ، فلأنها كانت تجيد العربية وتترجمها لزوجها . وفي هذه الرسالة الثانية استمر عبده في حماسته وسعيه إلى فضح الخديو وعملائه وتجنيد الشهود على سوء نيتهم . واذا كانت الرسالة الثالثة تتحدث حول مشاغل محمد عبده اثناء اصدار صحيفة « العروة الوثقى » ، فإن الرسالة الاخيرة تعود بالمشاغل إلى مصر وقت الثورة العرابية ودخول الانجليز . ومن الواضح أن مرور نحو سنتين على احداث تلك الفترة لم يقلل من حماسة محمد عبده نحو الحق في تصويرها ، ولا اضعف ذاكرته الوطنية] .

الرسالة الأولى[٣٠]

(القاهرة) في ٢٥ ابريل ١٩٨٢

... أما ما يتعلق بترقية الضباط التي تضخمها الصحف الأوروبية كثيرا فاسمحوا لي أن أجلو الحقائق .

أولا ـ لم تتم الترقيات بإرادة عرابى ورضاه ، ولا جاءت على سبيل الرشوة لكسب عواطف الضباط نحو عرابي ، وإنما تمت بمقتضى القانون العسكري الذي يقضي بإحالة الضباط إلى التقاعد لقاء معاش ، عند بلوغهم سنا معينة ، أو في حالة مرضهم ، أو انعدام كفاءتهم أو عجزهم . وقد بدأ تطبيق هذا القانون العسكري في عهد شريف باشا . وبناء عليه ضمت قائمة الاستيداع ٥٥٨ ضابطا . وتم إرسال ٩٦ ضابطا منذ عام إلى حدود الحبشة وزيلع وغيرها ، في حين تم نقل ١٠٠ ضابط من الخدمة إلى الوظائف المدنية . وبذلك بلغ عدد المحالين إلى التقاعد ٧٥٤ ضابطا . وهكذا كان من الطبيعي إجراء الترقيات لشغل الوظائف الشاغرة . ومازالت هناك خمسون وظيفة شاغرة مخصصة لطلاب المدرسة الحربية .

ولم يفرض السلطان رتبة الباشا على عرابي ، وإنما فرضها عليه الخديو الذي أصر على أن يكون جميع وزرائه من الحائزين على الرتبة .

أريد الآن أن أزيل من الأذهان الفكرة الخاطئة التي تزعم أن عرابي ، أو الحزب العسكري ، أو الحزب الوطني ، أدوات في أيدي الأتراك . فإن كل مصري ، عالما أو فلاحا ، حرفيا أو تاجرا ، جنديا أو مدنيا ، سياسيا أو غير سياسي ، إنما يكره الأتراك ويمقت ذكراهم غير العطرة . ولا يوجد مصري يخطر له أن ينزل بأرضه تركي دون أن يشعر بنبض يدفعه نحو سيفه ليخرج به الدخيل .

إن الأتراك مستبدون ، خلفوا بمصر كوارث مازالت تدمي قلوبنا . ونحن لا نستطيع أن نتمنى عودتهم أو نتمنى أن تكون لنا بهم صلة . وما استقر الأتراك بمصر إلا عن طريق الفرمانات . ولابد من إيقافهم عند هذا

(٣٠) نقل الدكتور محمد عمارة هذه الرسالة مترجمة ، ترجمة غير دقيقة ، دون ذكر للمترجم او المصدر في الجزء الاول من « الاعمال الكاملة » لمحمد عبده التي جمعها . المؤسسة العربية الحديثة ، بيروت ، ١٩٧٢ . راجع ص ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ . ومن الواضح أن بلنت قد حذف من الرسالة مقدمتها الشخصية .

الحد فلا يتخطوه . ولكن إذا حاولوا تخطي حدودهم فلن يكون نصيبهم سوى الرفض التام . وقد مر بنا شيء من ذلك ، وأدى إلى أن نستعد له . وسوف نستغل أي محاولة من هذا النوع في الحصول على استقلالنا التام . وإن ساستنا الأذكياء ليرقبون الآن كل حركة تقوم بها السياسة التركية في هذا البلد حتى لا تتجاوز حدودها . ولا أنكر أن في مصر أتراكاً وشراكسة يناصرون قضية الباب العالي ، ولكنهم قلة قليلة لا تقاس بأولئك الذين يحبون بلادهم .

وأما ما يتعلق بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابي فهي لا تشكل في الحقيقة خطرا جسيما . فالخديو السابق اسماعيل ـ أكبر عدو شهدته مصر يغار من سعادتها ـ لم يكف منذ وقت طويل عن تدبير المؤامرات للإطاحة بحكومتنا الحالية ، معتقدا أنه يستطيع بعمله هذا العودة إلى مصر . ولكن الله القادر على كل شيء بدد آماله أدراج الرياح . فكل مصري يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر . ومع ذلك أرسل الفرعون ، لتحقيق أمله ، واحدا من أتباعه ، هو راتب باشا الذي أبعد عن البلاد ثم نجح في دخولها بوسائل خسيسة في عهد حكومة شريف باشا ، وانضم إلى أخيه محمود أفندي طلعت البكباشي ، ثم إنضم إلى خدمته بعد ذلك يوسف بك نجاتي ، ومحمود بك فؤاد ابن أخت خسرو باشا ، وعثمان باشا رفقي (كلهم شراكسة) . وعمل هؤلاء على تجنيد الناس لخطتهم التي استهدفت القضاء على وزرائنا الحاليين ، وقتل كبار الضباط ، ابتداء من عرابي باشا . ونجحت جهودهم في ضم نحو أربعين من صغار الضباط قاموا بالقسم على تحالفهم . ولكنهم أجلوا تنفيذ الخطة مبدئيا انتظاراً لمسوِّغ . ثم وجدوا هذا المسوغ ممثلا في سخط تسعة من الضباط الشراكسة عارضوا صدور الأمر إليهم بالخدمة في السودان . وأصبح حزب راتب باشا مدركا لما كان يدور بينهم ، فاستغل الموقف كي يوحي للشراكسة التسعة بأن يرفضوا الذهاب إلا بشرط الترقية .

وقد كان لدى الوزارة ، منذ فترة طويلة ، شك في سوء التدبير الدائر . فمنذ فترة في بداية عودة راتب إلى البلاد طلب محمود سامي ـ رئيس الوزراء الحالي ووزير الحربية وقتها ـ من شريف باشا ـ في حضور الخديو ـ أن يبعد راتب . وكان السبب في ذلك أنه شك في أمر راتب وتخليه

عن الخديو السابق في نابولي على هذا النحو المفاجىء . ولكن شريف رفض الطلب ، مع أن محمود سامي حذّره بأنه سيكون مسئولا عما يمكن أن يقع يوما ما من جراء بقاء راتب . وسر ذلك الرفض أن راتب صهر شريف ، وربما كان ـ كما يعتقد الناس ـ شريكه في التخطيط لعودة اسماعيل .

لقد حدث على أي حال أن دعا حزب راتب أحد الضباط الشراكسة ، ويدعى راشد افندي أنور ، إلى الانضمام اليهم ، فرفض الضابط أن يكون له شأن بخطتهم ، ثم تركهم وجاء على الفور إلى عرابي وأفضى إليه بالخطة . ومن ثم صدر الأمر بالقبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية .

ولم تؤد الحادثة إلى إثارة كبيرة بين الناس . فالجميع يعرفون أن حياة عرابي ، وحياة الآخرين ، معرضة للأخطار كل يوم . وليس من الممكن لأي مخلوق ، مهما بلغ شأنه ، أن يجد التأييد من الجميع . ولكننا سنضحك لو قيل على الملأ أن انجلترا على وشك الفوضى لأن مجنونا ، عسكريا أو مدنيا ، حاول إطلاق الرصاص على مليكتكم .

إن مجموع الشراكسة في الجيش كله ٨١ شخصا . ولا يمكن لعاقل أن يتصور أن عددا صغيرا كهذا قادر على قلب الحكومة .

أما مسألة تجارة الرقيق فإن الوزارة الراهنة تبذل جهدها للقضاء على الرق المحلي . وليس في الدين الإسلامي ما يتعارض مع هذا على الإطلاق . بل إن المسلمين طبقا للسنة المحمدية محرم عليهم أن يتملكوا العبيد إلا اذا وقعوا أسرى حرب مع الكفار . وهؤلاء في الحقيقة إما أن يكونوا أسرى أو سجناء حرب مشروعة ، أو يمتون للكفار الذين يعادون أمراء المسلمين ولا تحميهم عهود ولا مواثيق . ولكن لا يباح للمسلم أن يسترق غيره . وهكذا فإن الدين الاسلامي لا يعارض القضاء على الرق كما هو كائن في العصر الحديث فحسب ، وإنما يدين استمراره أصلا . وأما أولئك السادة العلماء في انجلترا وغيرها ممن يؤمنون بغير هذا الرأي فيجب أن يأتوا الينا ، وأن يعلمونا ، نحن شيوخ الأزهر ، أصول ديننا . وسيكون هذا مشهدا يأخذ بالألباب . فعند ذاك سيخرس العالم الإسلامي كله عندما يعرف أن مسيحيا تولى عنه مهمة تدريس أصول

الدين الإسلامي وتفسير القرآن لعلماء أكبر جامعة إسلامية في العالم وأساتذتها وفقهائها .

وبعد أيام قلائل سوف يصدر شيخ الإسلام فتوى تثبت أن القضاء على الرق مطابق لروح القرآن والتقاليد الإسلامية والسنة المحمدية .

وستحاول الحكومة المصرية أن تزيل كل عقبة في الطريق . ولن يهدأ لها بال إلا بعد زوال الرق من الأراضي المصرية .

محمد عبده

الرسالة الثانية

بيروت في ١٣ رمضان ١٣٠٠[٣١]

إلى السيدة آن بلنت ، متعنا الله بمحياها .

أما بعد ، فمن بين أولئك الذين لديهم معلومات عن الشغب في الاسكندرية يوجد مصطفى عبد الرحيم . وقد شهد الشغب ، ومنع تفاقمه بالجنود النظاميين التابعين لسليمان سامي[٣٢](عليه رحمة الله) . وهو مستعد للإدلاء بشهادته إذا طلب منه ذلك . وقد أبلغني بهذا الليلة .

وأما أولئك الذين لديهم معلومات كاملة عن مسلك الخديو توفيق ومساعيه ، هو وأعوانه ، لتكدير الهدوء والسكينة في مصر ، وإثارة المسلمين على المسيحيين ، والمسيحيين على المسلمين ، فيوجد منهم هنا أحمد بك المنشاوي ، أحد أعيان مصر . وهو رجل ثري ذو عزم واستقامة لا مزيد عليها . وكان قد قام بحماية المسيحيين أثناء حوادث الشغب في طنطا ، وكذلك في المذابح الأخرى التي جرت في مديرية الغربية ، في عهد مديرها ابراهيم باشا أدهم ، صنيعة الخديو الذي عين في ذلك المنصب عقب ضرب الاسكندرية . والرجل (المنشاوي) على استعداد للإدلاء بالشهادة ضد الخديو وعملائه أمام أي قضاء ، أو أي محكمة – حتى في مصر . وهو لا يخشى في ذلك أي شيء ولا يهدده أي خطر . وقد كان في نيته أن يكتب باختياره خطابا إلى المستر بلنت ، كي يعبر له عن استعداده ، ورغبته الحارة في وضع ما يعرفه من أمور أمام الانجليز وكل ذي ميل إلى العدالة والمساواة . وهو مقيم الآن في بيروت . وإذا شئتم استدعاءه فلن يتأخر .

أرجو إبلاغ تحياتي الى المستر بلنت ، ونقل جزيل الشكر اليه على همته وأعماله الجليلة ، باسمي وباسم كل مصري – وكل انجليزي أيضا . كما أرجو إبلاغ تحيتي الى السيد صابونجي[٣٣]

شملك الله برعايته

محمد عبده

---

(٣١) ذكر بلنت إنه تسلم الرسالة في اغسطس ١٨٨٣

(٣٢) احد ضباط حامية الاسكندرية وقت احداث الشغب والحريق في يونيو ١٨٨٢

(٣٣) لويس صابونجي (١٨٣٨ – ١٩٣١) قس لبناني عمل بالصحافة في لبنان وانجلترا . واعاد في لندن إصدار مجلته « النحلة » (١٨٧٧ – ١٨٨٠) وقد عينه بلنت سكرتيرا عربيا له وقت اندلاع الثورة العرابية ، وارسله إلى القاهرة حتى يوافيه بالانباء من هناك ، حيث تعرف الى محمد عبده وغيره من الوطنيين .

الرسالة الثالثة [٣٤]

باريس في ١١ ابريل ١٨٨٤.

إلى صاحب السعادة صديقي العزيز ، صديق المسلمين ، ومعين العرب ، والمدافع عن الأمة المصرية .

بعد التحيات إليك وإلى المهذبة الفاضلة الليدي آن بلنت – وصلتنا رسالتك بالأمس . ولما قرأناها وجدناها مفعمة بالحكمة والنصائح النافعة للمسلمين . وقد أكدت ثقتنا فيك كصديق لهم .

يقدم لك التحية السيد جمال الدين . وسوف يكتب – على وجه اليقين – إلى أهل الهند في حيدرأباد وغيرها ، وينصحهم بالتزام الهدوء ، ويسكن ألبابهم على نحو ما اقترحت ، ويبسط لهم الفكرة التي صغْتَها بوضوح في رسالتك ، ويضع أمامهم التفاصيل بأفضل أسلوب وأبسطه .

أما بعد .

فقد اغتبطنا للنصيحة التي تكرمت بها علينا ، ووعدك بمساعدة صحيفتنا (العروة الوثقى) وقد كان هذا أملنا فيك . وما من شك في أن الله عز وجل قد خلقك لفعل الخير ومساندة قضية الحق والزود عن المظلومين . وهذا هو الوجه الحقيقي لصحيفتنا ، فضلاً عن خدمة تلك الأفكار التي تشقى من أجلها ، أعني الحفاظ على استقلال الأمم الشرقية ، ونصح الحكومة الانجليزية حتى تتخلى عن مسلكها الذي يشقى عقول المسلمين ، وتسرع بمدِّ يد الصداقة إليهم ، حتى تضمن وقوفهم في صفها .

ونحن ، في الحقيقة ، لا نحب تلك الدول الكبرى الأخرى التي أشرت إليها في رسالتك ، ولا نحن نسير في ركاب أي منها . [٣٥]

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته .

صديقك المخلص

محمد عبده

---

(٣٤) كتبت هذه الرسالة ردا على اخرى كان قد بعث بها بلنت اليه من لندن في ٧ ابريل ١٨٨٤ ، وابلغه فيها آراءه حول الاحتلال الانجليزي لمصر ، وضرورة الصلح مع المهدي في السودان ، واهمية اتحاد المسلمين في الهند ، ثم رجاه الا تتطرف « العروة الوثقى » في الكتابة عن الحكومة الانجليزية ، مبديا استعداده للمعاونة في إصدار الصحيفة . راجع نص الرسالة في كتاب « الافغاني ومحمد عبده » الذى نقلناه عن بلنت ونشرته دار الهلال في القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .

(٣٥) كان بلنت قد اشار الى الفرنسيين والروس والنمسويين والايطاليين قائلا انه ليس من الممكن ان يعامل هؤلاء امم الشرق كما يعاملها الانجليز ، ولا ان يوثق فيهم كاصدقاء مخلصين .

الرسالة الرابعة [٣٦] .

لقد طالعنا تصريحا للرائد (الميجور) ماكدونالد نشره في الكتاب الأزرق (مصر ١٨٨٤) ، وفند فيه الخطاب الذي نشرته صحيفة « التايمز » للمستر بلنت . وقد لاحظنا عليه بعض الأمور التي تستدعي التعليق .

ولست أدري هل يمكن أن تكون فترة الأسابيع العشرة التي قضاها مع المستر كاميرون في طنطا كافية لتمكينه من فهم الحالة الحقيقية للأوضاع التي كتب عنها .

لن أناقش هنا تاريخ فصل ابراهيم أدهم من منصبه كمدير ، ولكني أزعم أنه كان يجلس يوم مذبحة طنطا في الطابق العلوي من حكمدارية الشرطة ، وأنه كان يراقب القتلة والمقتولين من نافذة ذلك الطابق ، وأن أولئك الأشخاص قد قتلوا في فناء المديرية تحت بصره ، وأنه هو نفسه أمر السقائين بتنظيف أرضية مبنى المديرية من الدماء . (وقد أدلى السقاءون بشهادتهم حول هذه الواقعة أمام هيئة التحقيق في الحوادث)

أما ما يذكره ماكدونالد حول تقاطر كثيرين من الأوربيين على حكمدارية الشرطة بحثاً عن الأمان فليس من الصحة في شيء ، فيما عدا أن الشخص الذي قام بحمايتهم كان علي أفندي لبيب مأمور شرطة المدينة ، الذي أنقذ أرواح الكثيرين ، ولكنه اعتقل بعد الحرب ، وزج به في السجن ، حتى نهاية التحقيق ، ثم حكمت عليه المحكمة بالأشغال الشاقة لمدة عام بعد الكثير من الشفاعة .

والآن ، أي ذريعة وراء القبض على هذا الضابط ، الجدير بالثقة ، وقد شهد بحمايته للمسيحيين الرائد ماكدونالد (الذي فهم الحقيقة كلها في عشرة أسابيع) ؟!

أما ابراهيم أدهم فهو كردي ـ لا شركسي ـ كان يشترط على الحكومة ، في كل مرة يتولى فيها منصبا ، أن يخول استخدام « الكرباج » مع الفلاحين والعمد في المنطقة . أجل ! فحين كان مديرا للمنصورة في عهد وزارة رياض باشا الأولى علم الأخير بأنه يسيء معاملة الناس بالكرباج ،

---

(٣٦) ذكر بلنت انه تلقاها في ١٣ اغسطس ١٨٨٤ ، اي اثناء وجود محمد عبده في باريس ويبدو ان عبده قد استفزه ما جاء في تصريح ماكدونالد المذكور فكتب الرسالة توضيحا لبعض المواقف اثناء الثورة العرابية وبعدها . ومن الواضح ان بلنت قد حذف من الرسالة جوانبها الشخصية .

فكتب إليه بما يلي : « عليك بالاحتكام إلى القانون ، واستخدام الرأفة في الإدارة . وإذا استخدمت الكرباج فسوف تجرُّ على نفسك التعنيف الرسمي . » وحين تسلم هذا الأمر قدم استقالته من منصبه ، وأبى ألا يدير أمور الناس بالرأفة وطبقا للقانون .

وكانت استقالته في عهد وزارة محمود سامي لهذا السبب أيضا . ولما أعاد الخديو تعيينه مديرا للغربية ، بعد الحرب ، استمر في إدارته دون أن يغير قسوته المعهودة . فلما ازداد عدد أعدائه فيما بعد ، ونفد صبر أهالي مديريته ، حتى لم يعودوا يحتملونه ، غضبت عليه الحكومة ، وفصلته ، وعينت مكانه حسين باشا سراي .

لقد كان ابراهيم أدهم من مؤيدي حركة عرابي الأولى ، ولكن حين وقعت مذبحة طنطا علم عرابي أنه شارك فيها ، بالتحريض أو بالفعل ، فأمر بالقبض عليه . ولم يقبض عليه بسبب عدم اشتراكه في الفتنة ، ولكن الحقيقة أنه قبض عليه في ثالث أيام المذبحة ، قبل معرفة ما إذا كان سيؤيدها أم لا . والحق أن التلغرافات الرسمية ذات اللهجة الجازمة التي كان يبرق بها إلى وزارة الحربية إنما تكفي للإشارة إلى أنه لا يستحق الثناء الذي أغدقه عليه الرائد ماكدونالد . وربما أثنى عليه بعض الضباط الانجليز ، ولكني لا أعد هذا كافيا لتبرئته من أعمال العنف التي ارتكبها . وإذا شاء أحد أن يلم بدرجة الوحشية التي مارسها ابراهيم أدهم فليسأل في ذلك ابنه ـ ابراهيم حفظى بك .

أما فيما يتعلق بالتعس يوسف أبو دياب فقد وصل إلى محطة السكة الحديدية يوم المذبحة ، بعد ثلاث ساعات من بداية الشغب . ولم يقم بالتحريض على أي شغب (ولا أي شخص) ، وإنما أنقذ فتاة مسيحية، ونقلها إلى المديرية، ثم قام بتأنيب المدير، وآخَذه على الجلوس في المديرية والسماح بقتل الناس . ولهذا السبب شنق الرجل التعس .

وأما أولئك الأوربيون الذين يسجل ماكدونالد شهاداتهم فكانوا في حالة فزع شديد ، إلى درجة أنهم لم يتعرفوا على أولادهم ، وكانوا يجرون بحثا عن أي جحر يختفون فيه ـ فكيف إذن تأتي لهم أن يتعرفوا على يوسف أبي دياب وتمييز وجهه أو كلامه ؟

لقد شهد ناظر المحطة ومكتب التلغراف ببراءة يوسف أبي دياب في

البداية ، ولكن المدير ابراهيم أدهم هدد جميع الناس بالاعتقال والموت إذا لم يدلوا بشهاداتهم على هواه . وهكذا غيروا شهاداتهم بالإكراه . وترتب على ذلك ان الأقوال التي أدلى بها الأهالي قد صدرت جميعا تحت ضغط الخوف . ولكن لجان التحقيق تلك وتصرفاتها جزء لا يتجزأ من تصرفات الحكومة المصرية الانجليزية بعد الحرب ، وهي تصرفات تجيز التحقيق والتحري . ونحن نعرف حقيقة مجراها وأفعالها . ولا يوجد عاقل يؤمن بها ، لأنها من ذلك الصنف الذي يجلس فيه العدو ليفصل ويحكم على عدوه . واذا تكلمنا عنها لاستلزم الأمر أن نروي كل شيء عن تصرفات الحكومة بعد (معركة) التل الكبير ، الأمر الذي يؤدى بنا إلى الإفراط في الإسهاب ـ بغير طائل .

وقد اعترف أقارب القتلى ببراءة يوسف دياب ، والتمسوا العفو عنه من اللورد دوفرين الذي أحال الملتمس إلى الخديو ـ ثم صدر العفو ، ولكن الأمر بشنقه صدر سراً قبل نفاد الوقت المحدد لتنفيذ الإعدام . فلم تصل أنباء العفو إلّا بعد التنفيذ .

ربما استطاع ماكدونالد إقناع الأوربيين ـ من فرنسيين وانجليز وغيرهم ـ ولكننا نعرف قيمة مثل هذه الشهادة . ولو كانت عندنا حكومة حرة وعادلة لتوصلت الى الحقيقة عن طريق طاقم مختلف من الناس .

لقد نشر السيد عثمان [٣٧] مقالة طويلة في صحيفة L'Intransigeant [٣٨] . وضمنها جميع الحقائق . وكذلك فمن المعروف للبعض أن أول رئيس للجنة التحقيق في طنطا أراد إجراء التحقيق بعدل وإنصاف ، وأن يستجوب المدير ابراهيم أدهم حول مدى تورطه في حوادث الشغب . ولكن الحكومة ، التي تثق فيه ، فصلته وعينت مكانه محمود باشا الفلكي الذي كان يوجد في طنطا بالإسم في حين كانت الإدارة توجد في القاهرة بالفعل .

وهكذا تم إنقاذ المدير من المحاكمة ، وتم شنق يوسف أبي دياب بدلا منه .

---

(٣٧) عثمان غالب احد الوطنيين من انصار عرابي ، فر الى فرنسا بعد فشل الثورة ، وشارك في فضح أساليب الخديو وعملائه . وهو غير عثمان غالب باشا الذي كان محافظا للقاهرة عند إبعاد الافغاني عام ١٨٧٩ .

(٣٨) جريدة سياسة فرنسية يسارية كانت تشجع الشرقيين وتحتضن آراءهم .

لعـل من الأفضل الصمت عن تصرفات الماضي ، لأن الحديث عنها سيفتح الباب على مصراعيه أمام توجيه اللوم للحكومة الانجليزية التي تبغى إقرار العدل في مصر .

رسالة إلى حفني ناصف

[جرب محمد عبده السجع في الكتابة في مستهل حياته . ويبدو ان ذلك كان بتاثير معاصريه من شيوخ الادباء . ولكنه سرعان ما تخلى عنه بتاثير أستاذه الأفغاني .

وفي هذه الرسالة القصيرة الطريفة إلى صديقه وتلميذه حفني ناصف (١٨٥٦ ـ ١٩١٩) يحن محمد عبده إلى السجع ، ولكن على سبيل الفكاهة ، وتسلية الصيام ، وتلبية الطلب .

وقد نشرت الرسالة بمجلة « الهلال » ضمن تحقيق بعنوان « ادب المراسلة في الجيل الماضي » (فبراير ١٩٣٣) ومع ان تاريخها الهجري غير واضح ، فمن الواضح ـ كما يشير نصها ـ انه كتبها ايام عمله في القضاء ، بعد عودته من المنفى .]

عزيزي

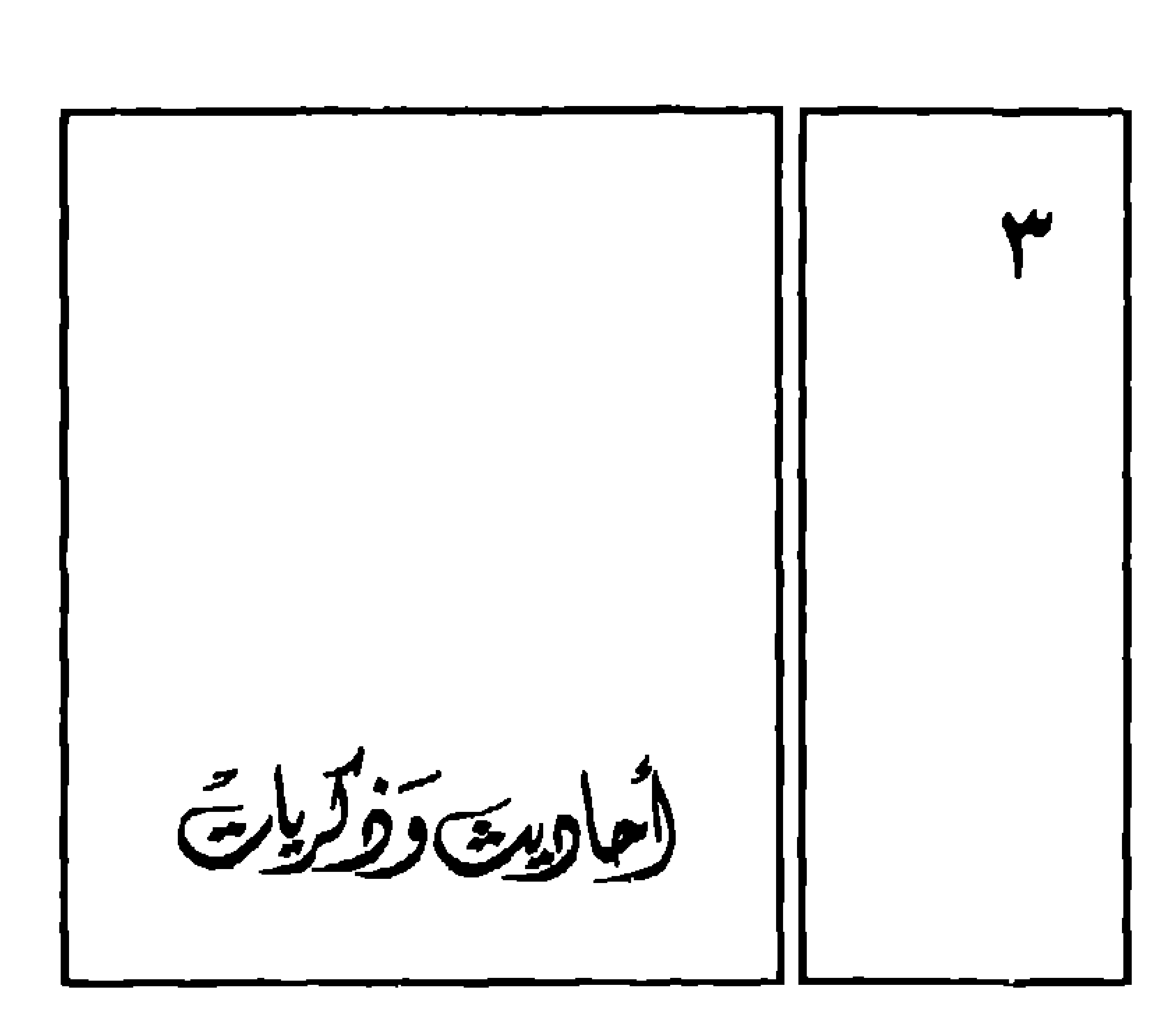
تسجع لي في كتابك ، وتطمع أن أسجع لك في جوابك ، كأنك لم تسمع أني تبت عن السجع ، حتى لو ساق إليه الطبع ، فماذا أصنع بك ، وقد نقضت توبتي بأدبك ؟

أعاد إلى كتابك وجدانا طالما وجدته في نفسي أيام الصوم ، والقضايا كوم على كوم ، مع لَدَد القوم وسماحة إلى النوم ، كأن تَعَبَك صُبَّ عليّ ، وكأنما انتقل ظمأك إليّ ، لكن لما تذكرت قصر النهار ، وقرب وقت الإفطار ، والنجاة إلى الدار من مقاضاة أهل النار وحملة الذنوب والأوزار ، قلت لقلقي قَرْ قار ، فكأني بالماء وقد حضر ، والطعام يتبعه على الأثر . فابتلت العروق ، ونقعت الحلوق ، وامتلأت البطون ، وقرت العيون ، وثاب السكون ، فحمدت الله لك على الشبع ، وسألته أن يجنبك البدْع في إطالة السهر وقتل الليل بالسمر إلى وقت السحر ، فذلك تهلكة للبدن ، مجلبة للوهن ، مضيعة لنفيس الزمن ، مطفيء لنور الفطَن ، وقاك الله هذه المحن .

ثم قد وصل التحويل ، وقبض مبلغ الثلاثمائة قرش ، وسيرسل إليك سند الاستلام . وسلامي عليك وعلى السيد أحمد رافع والسلام .

ليلة ٩ رمضان (٥) ١٣١

محمد عبده


٣
أحاديث وذكريات

حديث إلى صحيفة انجليزية

[في صيف ١٨٨٤ استضاف المستشرق الانجليزي ويلفرد بلنت صديقه محمد عبده في لندن . وسجل ذلك في يومياته التي سنطالع - بعد هذا الحوار - كل ما يتعلق فيها بمحمد عبده . ويتبين من هذه اليوميات - كما سنرى - ان الحوار تم في بيت بلنت ، حيث اقام محمد عبده ، ولكن بلنت لم يذكر اسم الشخص الذي اجرى الحوار . ومع ذلك كتب في يومية ٢ اغسطس ١٨٨٤ عبارة تقول : « سجلت حوارا مع عبده للنشر في صحيفة بال مال جازيت » . ومعنى هذا بوضوح انه هو الذي اجرى الحوار ، او زوجته - التي كانت تجيد العربية - او غيرها - تحت إشرافه . وقد نشر الحوار - على اي حال - بدون توقيع في الصحيفة المذكورة بتاريخ ١٧ اغسطس ، اي بعد نحو اسبوعين من تسجيله ، ثم اعاد بلنت نشره ضمن ملاحق كتابه « جوردون في الخرطوم » ، وهذه قرينة اخرى على انه - او زوجته تحت إشرافه - قد اجرى الحوار مع محمد عبده .

ويبدو ان هذا الحديث لم يظهر بالعربية إلّا في عام ١٩٤٠ ، حين ترجمه الدكتور عثمان امين ، ونشره بمجلة « الثقافة » في القاهرة (عدد ٨٤ في ٦ اغسطس) ومع ذلك لم تكن ترجمة الدكتور امين امينة على النص . ومع ذلك ايضا نقلها الدكتور محمد عمارة في الجزء الأول من اعمال محمد عبده (ص ص ٦٣٠ - ٦٣٤) ، بدون الرجوع إلى النص الاصلي ، فكانت النتيجة في النهاية ان النص ظل ناقصا ومشوها ، بالحذف تارة وتغيير المعنى تارة اخرى ، فضلا عن افتقاده مقدمته المهمة . وهذا كله هو ما دفعنا إلى إعادة ترجمته .

تقول مقدمة الحوار كما نشرتها الصحيفة ونقلها بلنت في كتابه :

« نميل إلى الاعتقاد بان الشيخ محمد عبده هو اول مصري حقيقي يزور هذا البلد . فقد تردد علينا كثيرون من المصريين المزيفين - اتراكا وشراكسة وشواما وارمن ويهودا - يدّعون جميعا جنسية النيل ، ولكن لم يحدث ان تردد علينا احد من « اهل الفول »[٣٩] الحقيقيين . ومع ذلك فالشيخ محمد عبده فلاح قح ، يرتدي جلبابا ازرق وعمامة بيضاء ، ولا

---

(٣٩) وضع بلنت العبارة كما تنطق بالعربية : Ahl el Ful ثم ترجمتها الى الانجليزية : The race of Beans ، وهي ترجمة مسرفة في تعبيرها !

يتكلم الفرنسية ولا الانجليزية ، ولا حتى التركية ، وإنما يتكلم لغة امه ، العربية ، ولا تبدو عليه اقل صبغة من الخلق الغربي . وهو رجل متوسط الطول ، اسمر البشرة ، اسود اللحية ، متوقد العينين ، مهيب التقاطيع ، ولكن لا تفارق شفتيه ابتسامة لطيفة ، يتحدث ـ إذا اخذته الحماسة ـ بفصاحة شديدة التواضع وحمية بهيجة . وهو مقبول المحيا بلا جدال ، فياض الذكاء .

« كان ابوه ـ وما يزال ـ فلاحا من اهالي الدلتا ، يقوم بفلاحة اربعين فدانا من الأرض في زمام محلة نصر ، ولا يدعي اي نسب بعلية القوم غير ما تهيأ له عبر اجيال لا تعدُّ من ملكية الفلاحين للقطعة الواحدة من الارض . ولكن الابن لم يعد الآن فلاحا . فقد ارسله ابوه إلى القاهرة صبيا منذ عشرين عاما ، حيث تلقى تعليمه بالجامعة الدينية القديمة في الأزهر ، وهو الآن من علمائه المرموقين ، او كان بالأحرى ، لأن السلطات القائمة ابعدته مع بقية الجماعة المتحررة في الجامعة ، وهو الآن منفي منها ومن مصر .

« ومع انه رجل معتدل ، بالمزاج ، فقد انضم إلى عرابي والحركة الشعبية قبل الحرب [٤٠] ، واصبح من زعمائها البارزين ، وساهم في خرابها . وبعد (موقعة) التل الكبير [٤١] عُدَّت فصاحته ، مع تحرره ، دليلا على خطورته ، ولكنه افلت من حبل المشنقة ، وسعد بالوصول إلى سوريا [٤٢] ، وراسه آمن على كتفيه ، ولكن حُكِمَ عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات ، وما يتبع ذلك من فقر . اما الآن فهو يقوم باول زيارة لأوربا ، كي يرى بعيني راسه البلد الذي خرَّب بلده .

هذه المعلومات حصل عليها من شفتيه مندوبنا الذي زاره منذ يومين في بيت المستر ويلفرد بلنت بشارع جيمس . ونظرا لإلمام المندوب باللغة العربية فقد امكنه إجراء المحادثة التالية معه »

وبعد هذه المقدمة المتعاطفة يبدا الحوار :]

مندوبنا : بدون مناقشة الماضي الذي نعترف جميعا بأنه شهد أخطاء فاحشة ، ما رأيك في الحالة الحاضرة بمصر والسياسة التي يجب اتباعها ؟

الشيخ محمد عبده : منذ وصولي الى انجلترا سألني الجميع هذا السؤال . وكل انجليزي يقول انه يرجو الخير لمصر ، ولكن أي السياسيين عندكم حاول أن يبرهن على صدق تصريحاته ؟ لقد كنا نؤمن نحن المصريين أنصار الحزب الحر [٤٣] بمذهب الحرية الانجليزي والتعاطف

---

(٤٠) المقصود : الحرب مع الانجليز عام ١٨٨٢

(٤١) الموقعة الفاصلة في تلك الحرب ، التي دخل الانجليز القاهرة على اثر هزيمة عرابي بها .

(٤٢) وصل إلى بيروت في الحقيقة ، ولكن بيروت كانت ميناء تابعة لولاية سوريا العثمانية .

(٤٣) لم يكن في مصر حزب بهذا الاسم ، وهو معنى مجازي مقصود به انصار الحرية والاستنارة . ونحن نعرف اليوم كلمة Liberal بمعنى ليبرالي ، ويقصد بها التحرر والاستنارة في الفكر والحرية السياسية والاقتصادية

الانجليزي ، ولكننا لم نعد نؤمن بهذا ، لأن الحقائق أقوى من الألفاظ ، أما مساندتكم للحرية Liberality فنحن نرى بوضوح أنها مسألة من أجلكم وحدكم ، وأما تعاطفكم معنا فهو تعاطف الذئب مع الحمل الذي يخطط لالتهامه . لقد قضيتم على كل ما فينا من خير حتى تجدوا مبررا للاستمرار في تملك بلدنا .

المراسل : صدقني أن هذا غير صحيح . قد يبدو لك صحيحا ، ولكنه ليس كذلك . فلا المستر جلادستون ولا أيّ من وزرائه ، يرجو سوى مغادرة مصر في أقرب وقت وعلى أتم وجه .

الشيخ : اذا صح هذا فلماذا لا تغادرونا على الفور ؟ إن الشيء الوحيد الذي علمتنا إياه الحكومة الانجليزية هو أن نتحد اذا رغبنا في رحيلكم . لقد كنا نتنازع قبل الحرب وأثناءها . وكنا نرجو أن نحطم استبداد حكامنا ، فرحنا نشكو من الأتراك ونعدهم غرباء . وكنا نرجو أن نصلح أنفسنا سياسيا ، وأن نتقدم على طريق الحرية مثلما تقدمت أمم أوربا . أما الآن فنحن نعرف أن هناك ما هو أسوأ من الاستبداد ومن هو أسوأ في العداء من الأتراك . نحن نرى فيهم إخوة لنا في الدين ، اذا لم يكن في الجنس ، فإذا تركتمونا وشأننا معهم لعرفنا كيف نتقدم في سلام . وليس في مصر مسلم لا يرجو من فرط الاضطهاد أن يتلقى منكم العون بعد الآن . فنحن لا نبتغي منكم إلا شيئا واحدا ، هو أن تحلوًا عنا من الآن والى الأبد .

المراسل : هل تصفحون عن توفيق ضمن صفحكم عن الأتراك ؟

الشيخ : لقد أساء الينا توفيق باشا اساءة بالغة حين سمح بدخولكم الى بلدنا . وانضم الى أعداء دينه وقت حرب ، ومن المستحيل أن ينال احترامنا . ولكن قد نصفح عنه اذا هو ندم على ما فعل ، ولا سيما اذا هو تخلص منكم . فنحن لا نرغب في خونة بوجوه مصرية وقلوب انجليزية .

المراسل : وما رأيكم في الفرنسيين ؟ إن رحيلنا عن مصر الآن سيعني بالتأكيد أنهم سيحتلون بلدكم بعدنا .

الشيخ : لا نظن ذلك . فالفرنسيون يعرفون أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا موافقتنا على حكمهم كما لم تستطيعوا ذلك أنتم . لابد أن نقاومهم مثلما قاومناكم . فنحن لا نريد حكاما أجانب من أي بلد ، ونعرف كيف نجعل

مثل هذا الحكم مستحيلا . والفرنسيون لا يمكن على أي حال أن يلحقوا بنا من الضرر أكثر مما فعلتم .

المراسل : والمهدي ؟

الشيخ : إن محمد أحمد (المهدي) لا خطر له على مصر إلا بوجودكم فيها . فإذا رحلتم عن مصر فلن يرغب في الهجوم علينا ، ولن يكون في هجومه ـ اذا فعل ـ أي خطر علينا . وهو قد نال العطف من الجماهير ، لأنهم يرون فيه مخلصا من العدوان المسيحي ، وسوف ينضمون اليه اذا أتى إليهم .

المراسل : ومتى سيحدث هذا ؟

الشيخ : لقد وصل انصار محمد أحمد إلى الصعيد (٤٤) بالفعل ، ولكنه هو نفسه لن يتقدم الا اذا استولى على الخرطوم . وحكومتكم تبذل كل ما في وسعها لتقويته .

المراسل : كيف ؟

الشيخ : عن طريق المعاهدة التي أبرمتها مع ملك الحبشة ، مما بث التعصب في الناس ، لأن في سُنَّتنا ـ مما يعرفه الجميع ـ أن الاحباش سوف ينقضون ذات يوم على مدينتنا المقدسة ، مكة ، ويدمرونها . ويرى الناس في كل مكان أن هذه المعاهدة تشكل خطرا جديدا على دينهم . فكيف يعقد ساستكم حلفا مع هؤلاء القوم الهمج ؟ كيف تأتي لهم أن يضيفوا هذه المشكلة الجديدة الى بقية المشكلات .

المراسل : ولكن أليس كل الشعب السوداني متعصبا بالفعل ؟

الشيخ (ضاحكا) : السودانيون ليسوا أكثر مني تعصبا . فحين كنت أعلِّم الفلسفة بالقاهرة كان كثيرون من الطلاب المصريين يخشون حضور محاضراتي ، ولكن كان عندي أربعة وثمانون طالبا من السودان ، لم يتخلف منهم عن الحضور أحد . ومع ذلك فالسودانيون اذا هددهم غزو أجنبي يصبحون متعصبين ، تماما كما سيحدث لكم اذا سار جيش من المسلمين في شوارع لندن .

المراسل : هل توجد لهذا علاقة بخبر الهياج في الجزيرة العربية ؟

---

(٤٤) كان راي الافغاني ومحمد عبده في ذلك الوقت ان حركة المهدي في السودان سوف تستفحل وتحرر مصر من الانجليز . ويبدو ان عبده اراد تخويف الانجليز بقوله هذا الذي لم يكن له سند سوى التعاطف مع الثائرين على الانجليز .

الشيخ : الخبر صحيح . وقد كنا نتوقعه منذ فترة طويلة . ولست أشك في أن معاهدتكم مع الأحباش قد عجلت به . فالمسلمون اذا تهددهم شيء حملوا السلاح . وشعب اليمن ليس أكثر تعصبا من السودانيين ، ولكنهم يعشقون حريتهم ، شأنهم شأن جميع العرب .

المراسل : وماذا يجب أن نفعل لتفادي العاصفة ؟

الشيخ : كفوا عن تهديدنا وارحلوا عن بلدنا .

المراسل : ولكن ماذا سيحدث للمسيحيين في مصر اذا رحلت قواتنا ؟ ألن تحدث مذابح جديدة ؟

الشيخ : لم تحدث في مصر مذابح سوى تلك التي تسببتم فيها أنتم . فوصول اسطولكم الى الاسكندرية أشعل حوادث الشغب بالمدينة . ونزول قواتكم الى البر أشعل الشغب في طنطا . ولم يحدث أن تعرضت حياة مسيحي للخطر إلا مع حضوركم ، ولن يتكرر ذلك اذا رحلتم . فليس بيننا وبين المسيحيين أي نزاع طالما أنهم يحافظون على قوانينا ، ولا يحاولون التدخل في الحكم .

المراسل : هل تظن إذن أنه لا توجد أمام السلام والرخاء في مصر أي عقبة سوى وجودنا هناك ؟ الا ترجو أن تشهد عودة الحزب الوطني [٤٥] قبل أن نرحل ؟ ألا تحب أنت نفسك أن تعود الى مصر ؟

الشيخ : لو أنني أعتقد أن حكومتكم لديها أي رغبة جدية في مصلحتنا لاقترحت عليكم سياسة . ولكن أي جدوى من إضاعة الألفاظ ؟

المراسل : قل ، مهما كان الأمر . فأيا كان ما تعنيه الحكومة أو ترجوه ففي انجلترا الكثيرون ممن يرون إنصاف مصر بأي ثمن .

الشيخ : اذا شاءت انجلترا ان تصلح الخطأ الذي ارتكبته في حقنا ، فيجب عليها ـ كما ذكرت ـ أن تقدم لنا أول دليل على إخلاصها باخراج قواتها من مصر . ثم يلي ذلك أن تتفق مع الدول الكبرى في أوربا وجلالة السلطان ، على اختيار حاكم جدي لنا . ولست مؤهلا لتحديد شخص هذا الحاكم . ولكن مهما كان الاختيار فلابد أن يقع على شخص غير مكروه من الشعب ، وأن يوافق عليه السلطان . ويجب أن يعين لمدة محددة ، لتكن سبعا أو عشرا من السنين . وبعدها يسمح للشعب في

---

(٤٥) إشارة الى الحزب الوطني القديم الذي تكون في اواخر عهد الخديو اسماعيل ، وكان محمد عبده من المتحمسين له .

نهـاية هذه المدة بانتخاب حاكمه بنفسه . فاذا أثبت الحاكم أنه رجل أمين ، أمكنه الاحتفاظ بمنصبه . ولكن اذا حدث العكس فيكون من حق الشعب أن يقصيه ، وبذلك يمكن انتظار النتائج .

المراسل : ولكن كيف يمكن التأكد من رغبات الشعب ؟ بأي شكل من الانتخابات ؟

الشيـخ : إن أي حاكم جديـد الآن ، يكـون مسلمـا ، ويتولى الحكم كمخلص لمصر من أيدي القوات الانجليزية ، سوف يحبه المصريون . ولكن لا شرط إلا أن يكون مسلما ، ومصريا بالميلاد اذا أمكن . ومع ذلك فمن الضروري أن يقنع بسلطة محدودة . فما نريده ليس ملكا جديدا ، وإنما زعيما للأمة المصرية ، يحكم تحت السيادة الدينية للخليفة . وهذا النوع من الحكام يفهمه المصريون ، فهم لا يريدون ملكا .

المراسل : وفي ظل هذا الحاكم هل يمكن أن تعود الى مصر أنت وزملاؤك المنفيون ؟ ما رأيك في عرابي ؟

الشيخ : أحب أن أرى عودته . وإذا تولى منصبا فمكانه هو المجلس (البرلمان) الذي يجب دائما أن يتمّم عمل حاكم مصر ويراقبه . وهو (عرابي) رجل فصيح العبارة ، نبيل الأفكار ، صادق الطوية ، يتجه نفوذه كله نحو الخير . ولكنه شديد الاهمال للتفاصيل ، مما لا يجعله يصلح لأن يكون إداريا جيدا ، أو قائدا جيدا . فليعد كرئيس للمجلس إذا انتخِبَ ـ هذا هو مكانه .

المراسل : والوزارة ؟ إن ما تشكو منه حكومتنا هو أنها لا تستطيع توفير طاقم من الرجال العاملين كي يحكموا البلد .

الشيخ : هذه غلطتها اذا كانت قد فشلت . فمصر لا تحتاج الى الرجال الشرفـاء . ولا الى الأكْفـاء . ولكنكم تصرون على اختيـار أولئك الذين ينفذون لكم مهمتكم ، ولا يوجد رجل شريف في مصر يقبل العمل لمصلحة الحكـومـة الانجليزية . وأنتم ـ مرة أخرى ـ تصرون على أن يحكموا بطريقتكم وأن يتحـدثـوا بلغتكم . والشرفـاء بشكـل عام لا يتكلمـون الانجليـزيـة ، ولا يحبون الأساليب الانجليزية . فأتيحوا لناأن نختار الحاكم الذي نحبه . وعند ذاك ننضم جميعا لمساعدته . فنحن جميعا نريد الاصلاح . ونحن جميعا نريد العدل . ونحن جميعا نريد التعليم . ولكن هنـاك مثـلا قديمـا يقول « إذا انتَنَ رأس السمكة فاحت رائحة

ذيلها » . ونحن نريد حاكما نستطيع أن نحترمه . أتيحوا لنا زعيما شريفا لأمتنا ، ومكنوه من تفويض عاهلنا السلطان ، ودعونا وشأننا . وعندئذ سوف نتمتع بالسلام ببركة الله . بل سنحاول أن نسدد ما علينا من ديون .

المراسل : ولكن ، هل كل المصريين يفكرون مثلك ؟ إني أميل الى الاعتقاد بأن تسعة أعشار الفلاحين سرعان ما سيفضلون أن تقلل حكومة مسيحية ضرائبهم على أن ترفعها حكومة مسلمة .

الشيخ : لا تخدعن نفسك . فالفلاحون مثقلون بالضرائب ، ولكنهم لا يشكون من ضرائبهم في الوقت الحاضر . فهم يفكرون أولا في كيفية تخليص بلدهم من أيدي الغريب . واذا تيسر لهم ذلك لأحبوا أن يسددوا ضرائب أكثر حتى يروا هذا الهدف متحققا . وأنا أعلم ذلك لأنني على اتصال بمراسلين في كل أرجاء مصر .[٤٦] قد تستطيعون الغاء جميع الضرائب ، ولكنهم لن يباركوا خطوتكم ، اذا اتخذتموها مبررا ، في الوقت ذاته ، للبقاء . كلا ، كلا ، ارحلوا عنا الآن وعندئذ ندعو الله كي يكافئكم على ما أسديتموه لنا . ولكن ، اياكم أن تحاولوا أن تسدوا الينا المزيد من الخير . فخيركم قد ألحق بنا ضررا أكثر من اللازم .

(٤٦) يشير إلى مراسلي جريدة « العروة الوثقى »

ذكريات مع ويلفرد بلنت

١ ـ الكيان الإسلامي يحتاج إلى الاصلاح الديني الصحيح

عرف ويلفرد بلنت محمد عبده طوال ما يقرب من ربع قرن . وربطت بينهما صداقة روحية تركت أثراً عميقاً في كل منهما ، وظلت موصولة حتى وفاة محمد عبده سنة ١٩٠٥ . وكان لها أثر كبير على بلنت نفسه ، اعترف به في أكثر من مناسبة ، ولا سيما في تقديمه لكتابه المشهور في العربية « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر » فلولا محمد عبده وتوجيهاته ما ظهر ذلك الكتاب على النحو الذي ظهر به ، في طبعته الثانية المزيدة والمنقحة .

يقول بلنت في مقدمته لهذه الطبعة التي ظهرت سنة ١٩٠٧ ، أي بعد نحو سنتين من وفاة صديقه ، أنه راجع الطبعة الأولى (ظهرت سنة ١٨٩٥) مع محمد عبده سنة ١٩٠٤ وكانا يلتقيان كل يوم لهذا الغرض فيتناقشان في التاريخ القريب وأحداثه .[٤٧] ويضيف بلنت عن صديقه :

« وحول هذا الموضوع كثيرا ما تحدث إليَّ مبديا أسفه على عدم وجود فراغ عنده يمكنه من إكمال تاريخه (لهذه الأحداث) وحين حدثته عن مذكراتي حثني بقوة على نشرها ، اذا لم يكن بالانجليزية فبالعربية ـ عن طريقه ـ على الأقل. وتعهد بمراجعتها معي، ومطابقة ما يتصل منها بما يعلمه على الحقيقة . وقد كنا صديقين شخصيين ، وحليفين سياسيين ، منذ يوم زيارتي الأولى لمصر تقريبا . وكان من السهل ـ وحديقته تطل على حديقتي ـ أن نعمل معا ونقارن ذكرياتنا عما عرفناه من بشر وأشياء . وبهذه الطريقة اتخذ تاريخي لحقبة لا تنسى ـ بالنسبة لنا ـ شكله النهائي . واستطعت (يا لي من محظوظ !) أن أتمه ، وأن أحصل منه (عبده) على موافقته وتصريحه بالطبع قبل أن يموت »

وفي هذه المقدمة الرثائية لمحمد عبده وصفه بلنت بأنه « الفيلسوف والوطني الكبير » الذى مات في ذكرى ضرب الاسكندرية (١١ يوليو

---

(٤٧) روى محمد رشيد رضا في « تاريخ الأستاذ الامام » (ج . ص ص ٩ ـ ١٠) ان بلنت شجع عبده على تدوين سيرته وتجاربه .

١٨٨٢) وقال « إن وفاة المفتي ضربة قاسية لي ولمصر أيضا . وقد أدت إلى تأجيل خطتنا لنشر الكتاب بالعربية إلى أجل غير مسمى »

أهم من هذا كله أن قارىء الكتاب الذي اشتهر به بلنت يشعر شعورا قويا بعد الفراغ من قراءته بأن لمحمد عبده يدا بارزة في تسجيل حوادث تلك الفترة الخطيرة في تاريخ مصر التي دامت نحو سنتين (١٨٨١ ـ ١٨٨٣) وشهدت الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي .

يصور بلنت في كتابه « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر » أول لقاء له بمحمد عبده على النحو التالي :

« أجد ورقة بين أوراقي تشير إلى تاريخ ٢٨ يناير ١٨٨١ . ففي ذلك اليوم صحبني لأول مرة عالم (أزهري) [٤٨] متحمس إلى البيت الصغير الذي يقيم به محمد عبده في حي الأزهر .

وأعد ذلك اليوم ـ بصفة خاصة ـ علامة مميزة ، لأنه شهد مولد صداقة استمرت الآن (١٩٠٤) نحو ربع قرن لواحد من خيرة الرجال وأكثرهم حكمة وإطلاعا . ويجب ألا يظن أحد أن استخدامي هذه الكلمات في وصفه يعني أنها تشكل حكما مجاملا أو مبالغا . فإني أبني حكمي على معرفتي الشخصية التي اكتسبتها في ظروف شتى ، وفي مناسبات شديدة الصعوبة والقسوة ، كمعلم ديني أولا ، ثم كزعيم لحركة إصلاح اجتماعي ، ومثقف على رأس ثورة سياسية ، ثم كسجين في أيدي أعدائه ، ومنفي في أراض أجنبية عدة ، وبعدها عرفته حين وضع طوال سنوات تحت مراقبة الشرطة في القاهرة عندما انتهت مدة نفيه ، ثم حين أسس لنفسه في بلده نفوذاً بفضل رجاحة عقله وقوة شخصيته ، واستأنف محاضراته في الأزهر ، وعين قاضيا في محكمة الاستئناف ، وأخيرا حين عين مفتيا للديار المصرية في هذه الأيام ، وهو أعلى منصب قضائي وديني في مصر [٤٩] .

« لقد كان الشيخ محمد عبده ، حين رأيته أول مرة عام ١٨٨١ ، رجلا في نحو الخامسة والثلاثين ، متوسط الطول ، أسمر ، نشيطا في مشيته ،

---

(٤٨) هو الشيخ محمد خليل . وكان قد قدمه لبلنت موظف انجليزي لتعليمه اللغة العربية سنة ١٨٨١ . ثم مات بالكوليرا بعد عامين .

(٤٩) الصواب أن منصب المفتي يلي منصب شيخ الأزهر .

تعكس عيناه النفاذتان حدة ذكاء ، وكان صريحا بطبعه ، ودودا ، يوحي بالثقة الفورية ، ويبدو في ملبسه شرقيا خالصا ، يرتدي عمامة بيضاء وجبة غامقة اللون كالتي يرتديها شيوخ الأزهر ، ولا يعرف ـ حتى ذلك الوقت ـ أي لغة أوربية ، أو لا يعرف في الحقيقة غير لغته . وبمساعدة محمد خليل الذي كان يعرف قليلا من الفرنسية ويعاونني في عربيتي غير الكافية ناقشت معه (محمد عبده) معظم المسائل التي سبق أن ناقشتها مع تلميذه . (خليل) ومن الاثنين اكتسبت قبل مغادرتي القاهرة (١٨٨١) معرفة واسعة بآراء مدرسة الفكر الاسلامي الحر التي يتبعانها ، ومخاوفهما من الحاضر ، وآمالهما في المستقبل . وقد سجلت هذا كله بعد ذلك في كتاب نشرته في أواخر تلك السنة بعنوان « مستقبل الإسلام » وقد أكد الشيخ محمد عبده على نقطة أن ما يحتاجه الكيان السياسي الإسلامي ليس مجرد الاصلاحات ، وإنما الاصلاح الديني الصحيح . وفيما يتعلق بمسألة الخلافة اتفق رأيه في ذلك الوقت ، مع رأي معظم المسلمين المستنيرين ، على ضرورة إعادة إقامتها على أساس روحي أكبر . وشرح لي كيف أن الممارسة الشرعية لسلطة الخلافة تتيح حافزاً للتقدم الثقافي ، وأن قليلين ممن حملوا لقب « الخليفة » على مدى قرون كانوا يستحقون القيادة الروحية للمؤمنين . فبيت آل عثمان لم يعن بالدين طوال مئتي سنة ، ولم يعد يطالب بأي ولاء خارج حق السيف . وقد كانوا وما يزالون أقوى أمراء المسلمين ، وأقدرهم على خدمة الصالح العام ، ولكن مالم يتحمسوا لأخذ وضعهم بجدية ، فسوف يسعى الناس شرعا إلى أمير مؤمنين جديد . ولا شك أن الأمر يتطلب أساسا سياسيا جديدا على وجه الإستعجال ، من أجل الحاجات الروحية للمسلمين . وفي هذا كله كانت ثمة نغمة معتدلة في تعبيره عن آرائه المقنعة للغاية بما تحمله من حكمة عملية . »

في ذلك العام (١٨٨١) وجد بلنت نفسه في خضم الحركة الوطنية المصرية . فقد تفاقمت أوضاع مصر الاقتصادية في أواخر عهد الخديو اسماعيل . ولم يستطع الخديو توفيق أن يصلح ما أفسده أبوه بإسرافه واستبداده ، حين خلفه في حكم البلاد سنة ١٨٧٩ . وأصبح من الواضح للمراقب الخارجي ، مثل بلنت ، أن يتنبأ بنشوب ثورة في البلاد ، أو سقوط مصر فريسة للسيطرة الأجنبية والاحتلال . وقد توالت النبوءتان

واحـدة بعـد الأخـرى . ولكن الثورة نفسـها تدرجت من حركة تطالب بالاصـلاح ، إلى مقاومة عسكرية للتهديد والاحتلال الانجليزيين . ولما تصاعدت الأحداث مع بداية ذلك العام برزت إلى السطح أسماء كثيرين من الضبـاط والمثقفين . وكان على رأس هؤلاء أحمد عرابي والبارودي وعبـد الله النديم ومحمد عبده . وقد سعى بلنت إلى لقاء عرابي الذي تجمعت في يديه كثير من خيوط الحركة الوطنية في ذلك الوقت . وتم ذلك ـ لأول مرة ـ في ١٢/ ديسمبر ١٨٨١ .

وقد استمع بلنت إلى عرابي طويلا في هذا اللقاء . وخرج من عنده متأثرا بحواره معه حول ضرورة استقلال مصر الاداري عن الدولة العلية (العثمانية) مع الاعتراف بالسلطان خليفة للمسلمين . وتأييد الحزب الوطني للخديو مع الإلحاح على حكم الشورى وحرية التعبير ، والسعي نحو تخليص مصر من ديونها وسيطرة الأجانب ، مع مساواة الأجنبي والوطني في الحقوق والواجبات ، وتشجيع سياسة الحزب العلمانية تجاه أصحاب الأديان الأخرى غير الاسلام . وقد ذكر بلنت أنه ذهب بعد لقاء عرابي الى صديقه محمد عبده ، واقترح عليه تسجيل الآراء التي سمعها من عرابي واعـدادهـا في صورة برنامج أو بيان لعرضه على الحكومة الانجليزية ثم عرض الفكرة على القنصل الانجليزي ادوارد ماليت فوافق عليها .

يقول بلنت :

« وبناء على ذلك قمت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وآخرين من الزعماء المدنيين باعداد بيان أمليناه على صابونجي (سكرتير بلنت) وضمناه موجزا لأفكار الحزب الوطني . ثم أخذه محمد عبده الى محمود باشـا سامي الذي عين وزيـرا للحـربية مرة أخرى ، وحصل منه على موافقته على البيان ، كما عرض على عرابي ووافق عليه » .

أطلق على هذا البيـان اسم « برنـامـج الحـزب الوطني » . وقـام صابونجي بترجمته الى الانجليزية ، ونقح بلنت الترجمة ، ثم أرسله الى جلادستون رئيس الوزراء ، وأرسل نسخة منه الى تشينري رئيس تحرير صحيفة « التايمز » الذي نشره في حينه . ولكن دور محمد عبده هنا لا يتجاوز الاشتراك في الصياغة وربما اقتراح بعض الأفكار . ولا يمكن أن ينسب البيان له .

وقد كان البيان يؤكد على ضرورة وجود دستور للحكم في مصر ، حتى تستتب أمورها ، وتستقيم نهضتها . وعبر محمد عبده عن رأيه وزملائه من المعتدلين في الدستور ، فقال لبلنت :

« لقد انتظرنا مئات السنين من أجل أن تتحقق حريتنا . وهذا كفيل بأن ننتظر بضعة أشهر أخرى » .

ومنذ البداية مال بلنت إلى آراء محمد عبده . وكان يسجلها أول بأول ، ويوحي للقارىء بأنه لا يختلف معها كثيرا ، إن لم يكن يؤيدها . بل إنه اقتنع تماما في ذلك العام بقضية الاصلاح الفوري لأمور الاقتصاد المتدهور ، والديون الأجنبية ، وسيطرة انجلترا وفرنسا على مالية البلاد ، والحكم الاستبدادي . وأصبح يدافع عن عرابي وزملائه من أنصار الحزب الوطني . وحاول أكثر من مرة أن يتدخل في بعض الأزمات التي نشبت بين الوطنيين والمراقبين الماليين ، الانجليزي والفرنسي . وكان محمد عبده مصدره الأساسي فيما يتعلق بالجانب الوطني ، ومرجعه فيما يتعلق بفهم الأحداث وتطوراتها .

وقد حدثت أول أزمة بين الأعيان الوطنيين ، أعضاء مجلس شورى القوانين ، وبين المراقبين الانجليزي والفرنسي للمالية المصرية . وكان سبب الأزمة مطالبة أعضاء المجلس باخضاع نصف الميزانية السنوية للبرلمان ، وترك الصرف في النصف الباقي للمراقبة المالية . ومن الواضح أن هذه المطالبة جاءت تعبيرا عن الرغبة الطاغية في الشعور بالاستقلال وحرية الارادة . ولكن المراقبين الأوروبيين لم يرضيا عن تقلص سلطاتهما ، وحاولا أن يوسطا بلنت الذي كان على علاقة بالمراقب الانجليزي كولفين . وحاول بلنت بدوره أن يخفف حدة التوتر بين الجانبين فلجأ الى صديقه محمد عبده يطلب مشورته .

وكتب بلنت عن ذلك:

« بعد التشاور مع الشيخ محمد عبده ، الذي كان كعادته في صف التروي والتراضي ، رتب لي الالتقاء في بيته بوفد منهم لمناقشة القضية معهم ، حتى أبين لهم العواقب المحتملة لمقاومتهم ـ أعني التدخل المسلح »

ولكن هذا اللقاء لم يفض إلى نتيجة مثمرة ، وإن كان بلنت نفسه تفهم موقف الأعيان وأيدهم فيه . وكان القنصل الانجليزي ادوارد ماليت قد

أفهم بلنت أن الميزانية المصرية مسألة دولية ، لا حَقَّ لرئيس الوزراء المصري (محمد شريف في ذلك الوقت) ، ولا للبرلمان ، في المساس بها ، دون الحصول على موافقة حكومتي الدولتين اللتين وكلت اليهما مهمة مراقبة المالية والخزانة المصرية ، وهما انجلترا وفرنسا . ويضيف بلنت عن لقائه السابق :

« على هذا الاساس (استقلال الميزانية) ، وبمساعدة صابونجي ومحمد عبده ، ناقشت القضية معهم بشكل شامل . واقتنعت بأن تنازلهم أمر غير ممكن . ولكنهم وافقوا بالفعل على تعديل المواد الثلاث أو الأربع التي اعترض عليها المراقبان أساسا ، مثل منح المجلس سلطات « المؤتمر » فقاموا بإدخال التعديلات التي اقترحتها في اللائحة المنشورة بعد ذلك . ولكنهم تمسكوا برأيهم فيما يتعلق بمادة الميزانية وجوهرها ، بالرغم من تأييد الشيخ محمد عبده لي »

وهكذا عاد بلنت من مهمته الصعبة هذه بخفي حنين . فقد كان التيار الثوري في الحركة الوطنية أكثر حماسا وعنادا من التيار المعتدل الذي مثله محمد عبده وبعض الأزهريين الآخرين .

في ٣١ يناير ١٨٨١ ، أي بعد أيام من محاولة بلنت في التوسط هذه ، ذهب لمقابلة كولفين ، المراقب الانجليزي . وكان كولفين ـ كما ذكر بلنت ـ من طراز الموظفين الانجليز الذين تربوا في الهند ، ونشأوا على كراهية الشرقيين . ويسجل بلنت في ذلك اليوم :

« كنت في مرحلة مبكرة من مراحل القضية قد صحبت الشيخ محمد عبده لمقابلته ، ظنا مني أن أحقق بعض التفاهم بين الطرفين . وحاولت أن أفعل ذلك مع الضباط . ولكن سلوك كولفين أثار الشيخ . وكان الضباط يخجلون من الذهاب معي اليه . فقد كان ، في بعض الأحيان ، يتكلم بطريقة فجة ووقحة » .

لقد كان كولفين ـ كما يرى بلنت ـ مقتنعا بأن انجلترا لن تغادر مصر ، أو تتخلى عن مكانها فيها . وكان من رأيه تحطيم الحزب الوطني بأي ثمن . ولم يكن يداري هذه الآراء ، حتى إن بلنت حذر أصدقاءه المصريين منه . بل إنه أبدى ندمه على تحديه حين قال له : « أتحداك أن تحقق تدخل الانجليز فى مصر أو سيطرتهم عليها » فقد ندم بلنت على ذلك التحدي لرجل أحمق متهور ، وقال : « إني نادم على ذلك لأني أعتقد أن

التحدي أضاف دافعا شخصيا وسياسيا الى تصرفه التالي » ويقصد بذلك التصرف إيعاز كولفين لحكومته باحتلال مصر .

لم يبق بلنت طويلا في مصر ذلك العام على أي حال . فقد عاد إلى انجلترا في أواخر شتاء ١٨٨١ . وراح يتابع قضية مصر من هناك . وأرسل سكرتيره صابونجي ليتابع الأمر على الطبيعة في القاهرة والاسكندرية . وقابل في لندن الجنرال ولسلي ، قائد حملة الاحتلال ، في ١٥ يناير ١٨٨٢ ، وعرف منه بعض الخطوات القادمة . وأرسل إلى محمد عبده خطابا يحذره وغيره من أفراد المعسكر الوطني من احتمال هجوم الانجليز على مصر ، في حالة التدخل المسلح من ناحية الاسماعيلية . وفي ١٩ يناير كتب اليه صابونجي من القاهرة قائلا إن « محمد عبده قرر جمع كل الوثائق التي بحوزته مع غيرها مما يتعلق بالمسائل المصرية للسفر بها إلى انجلترا ، وعرضها على المستر جلادستون والبرلمان الانجليزي »

في ١٤ مايو ١٨٨٢ ، أي قبل ضرب الاسكندرية بنحو شهرين ، تلقى بلنت تلغرافاً بالفرنسية [٥٠] من محمد عبده ، ولكنه عدَّ صيغة التلغراف محيرة ، وهذا نصها :

« لا يوجد خلاف بين سلطان باشا والبرلمان . الذئب (يقصد الخديو المعزول اسماعيل) الذي زعمت اشتراكه في المؤامرة الشركسية في خطابي لصابونجي هو في الحقيقة شريك في الجريمة . هناك خلاف متباين بين أعضاء البرلمان . الأمن العام لا يهدده خطر . »

هذه هي جميع الفقرات التي جاءت في متن كتاب بلنت عن الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي فيما يتعلق بمحمد عبده . ومنها نتبين أن محمد عبده كان مساهماً بدور بارز في الحركة العرابية ، ومقربا من قادتها ولا سيما عرابي والبارودي . ومع ذلك كان يميل في آرائه إلى الاعتدال والتراضي والتروي كما أشار بلنت بحق. وكان في الوقت نفسه المصدر الأساسي لبلنت فيما يتعلق بالمعسكر الوطني ، الذي صعد عرابي الى قمته بعد استقالة وزارة شريف باشا في فبراير ١٨٨٢ ، وتولى البارودي الوزارة . بل كان أيضا مصححا لكثير من المعلومات التي

---

(٥٠) لم يكن محمد عبده يعرف الفرنسية في ذلك الوقت . ومن المؤكد انه عهد لمن يعرفها بصياغة التلغراف .

استقاها بلنت أو كتبها ، عن تلك الفترة العصيبة التي سبقت احتلال الانجليز لمصر وشهدت هزيمة الحركة الوطنية بعدها .

ومن أهم التصحيحات التي قام بها محمد عبده في كتاب بلنت ما ذكره حول تفكير عرابي ورجال الجيش في التخلص من الخديو اسماعيل قبل عزله . فقال عبده لبلنت :

« أما بالنسبة لما يقوله عرابي حول اقتراحه في ذلك الوقت بخلع اسماعيل فلا شك أنه كان ثمة حديث يدور سرا حول هذا الموضوع . وكان الشيخ جمال الدين (الأفغاني) يؤيده . وقد اقترح عليَّ ضرورة اغتيال اسماعيل ذات يوم عند مرور عربته على كوبري قصر النيل . ووافقت على ذلك بحرارة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحديث بيننا . فقد كان ينقصنا شخص قادر على المبادرة في الموضوع . ولو كنا نعرف عرابي في ذلك الوقت لنظمنا معه الأمر ، ولكان ذلك أفضل شيء ، لأنه كان سيمنع تدخل أوربا . ومع ذلك لم يكن من الممكن أن نؤسس جمهورية بسبب ما كان سائدا وقتذاك في أوساط الشعب من جهل سياسي »

من أهم التصحيحات أيضا ما أثبته بلنت ـ نقلا عن محمد عبده ـ حول مؤامرة الضباط الشراكسة ودور الخديو اسماعيل فيها . وكان بلنت قد علم من ابراهيم المويلحي أن اسماعيل دبر هذه المؤامرة من منفاه في نابولي عن طريق أعوانه في مصر وعلى رأسهم راتب باشا عدو الوطنيين وعرابي . وكان هدف المؤامرة اغتيال عرابي وزملائه ، ثم استقدام الخديو اسماعيل والمناداة به خديويا على مصر . وقد ذكر محمد عبده لبلنت في الرسالة المؤرخة في ٢٥ ابريل ١٨٨٢ أن المتآمرين قبض عليهم وتم سجنهم . كما ذكر في رسائل أخرى الكثير من الوقائع المتعلقة بما سمي « حوادث الشغب » في الإسكندرية عند نزول الانجليز والمذبحة التي دارت هناك ، فضلاً عن ملاحظاته حول أحداث المقاومة الوطنية للانجليز ، حتى سقوط مدينة التل الكبير ، وهزيمة الجيش ، والقبض على عرابي . وكان مما ذكره أن الخديو توفيق أمر خصيانه بالذهاب إلى السجن الذي أودع فيه عرابي وزملاؤه ، وإهانة زعماء الثورة بالسب والبصق في وجوههم . بل إن بلنت أورد في كتابيه عن الاحتلال الانجليزي لمصر ومشكلة جوردون في الخرطوم الكثير من النصوص لبيانات أو خطابات تلقاها من محمد عبده أثناء الثورة العرابية وفترة نفيه بعد ذلك .

وقد مر بنا معظمها في رسائل عبده المجهولة الى بلنت .

وهذه كلها مؤشرات الى الدور الذي لعبه محمد عبده خلال تلك الفترة التي تلت نفي أستاذه الافغاني في ٢٤ أغسطس ١٨٧٩ ، حتى نفيه هو نفسه في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ ، وكذلك تشير إلى الدور الآخر الذي لعبه في تدوين أحداث تلك الفترة على يدي صديقه بلنت . فلولا محمد عبده ما خرجت مدونة بلنت على تلك الصورة التي خرجت بها ، ولا سيما في كتابه عن الاحتلال الانجليزي لمصر ، كما ذكر في مقدمته الرثائية السابقة .

٢ ـ في المنفى من الشام إلى أوربا بين الصحافة والسياسة

احتل الانجليز مصر في ١١ يوليو ١٨٨٢ . وفشلت مقاومة عرابي وقواته بعد نجاح الانجليز في التسلل إلى صفوفه بالرشوة والإغراء . وانتهى كل شيء ـ بعد نحو ستة أشهر ـ بنفي قادة الثورة ومثقفيها ، ومنهم محمد عبده الذي حكم عليه في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ بالنفي ثلاث سنوات . وقد رحل الى بيروت مع عشرات من الوطنيين المنفيين . ومن هناك ظل على صلة ببلنت عن طريق المراسلة . وكان بلنت نفسه يجمع في ذلك الوقت شهادات ومعلومات حول الاحتلال الانجليزي ، ودور الخديو فيه للاستفادة بها في تأليب الرأي العام الانجليزي على حكومته وسياستها ، كما لاحظنا فيما أرسله إليه محمد عبده من رسائل في ذلك الحين .

غير أن محمد عبده لم يبق طويلا في بيروت . فقد استدعاه أستاذه الأفغاني في يناير ١٨٨٤ إلى باريس لاصدار « العروة الوثقى » . ومن باريس سهل اتصاله بصديقه بلنت . وكان الأخير قد عاد في ذلك الوقت من رحلة الى الهند زار خلالها عرابي وزملاءه المنفيين في جزيرة سيلان . وفي طريقه الى لندن توقف قليلا في باريس ، وكتب عن ذلك في كتابه « جوردون في الخرطوم » فقال :

« وفي باريس قضينا بضع ساعات في صحبة أصدقائنا اللاجئين : الشيخ عبده ، والسيد جمال الدين ، وجيمس (يعقوب) صنوع . أما الأول فلم أكن قد رأيته منذ الحرب (في مصر) لأنه قضى السنة الأولى من منفاه في دمشق (الصواب في بيروت) حيث احتفى به أبناء عبد القادر (الأمير الجزائري المنفي) وعاش حياة ضنك ، ولكن في أمان ، مع عدد كبير من الوطنيين المصريين المنفيين . وجدناه قد تأورب الى حد ما ، بعد شهرين من الاقامة في باريس . فقد اهمل حلق رأسه ، وارتدى طربوشا بدل العمامة ، مما قلل من مهابته كشيخ ، مع أنه كان وما يزال يرتدي عباءة محترمة من الجوخ . وهو يتكلم الآن بصراحة ضد السلطان والأتراك . ويشكو من الاستبداد في سوريا (الشام) ولا يعتقد أن الشريف عون (أمير مكة) سيكون الخليفة القادم . ويقول إن المهدي هو مقدمة ظهور الخليفة العربي ، وسرعان ما سيصبح الخليفة ، بعد ذلك .

« ولقد رويت له ولجمال الدين كل ما فعلته في الهند ،. وأطلعتهما على فكرتي في الذهاب الى القسطنطينية ، ولكنهما حذراني من عدم جدواها ، وقالا إنني إذا حاولت الذهاب فهما لا يتوقعان منه خيْراً. فالسلطة كلها هناك في يد عثمان باشا (رئيس الوزراء أو الصدر الأعظم) الذي لا يهمه إلا أن يملأ كيسه بالمال . أما سوريا (الشام) فتموج بأفكار الحرية برغم طغيان الجواسيس والشرطة . ولا يمكن عمل شيء في القسطنطينية . ثم تحدثنا عن المهدي الذي أصبح الآن الموضوع الرئيسي لاهتمام المسلمين، وكذلك عن جوردون الذي ذهب الى الخرطوم. ووافق جمال الدين على الخطاب الذي كتبته لجوردون . وقال إنه مقضي عليه ما دام يتخذ الجانب الخاطيءَ . »

وينقل بلنت بعد ذلك ما جاء في يومياته حول زيارته لمقر صحيفة « العروة الوثقى » وقد تمت هذه الزيارة في ٢٧ مارس ١٨٨٣ . وغادر بعدها باريس عائدا الى لندن . وفي ٨ أبريل ، أي بعد أقل من أسبوعين سجل في يومياته أنه كتب خطاباً لمحمد عبده أوضح فيه آراءه حول الهند ومسلميها . وفي هذا الخطاب المطول المؤرخ في ٧ أبريل أشار بلنت الى أنه كتبه ردا على خطاب تلقاه من محمد عبده اعتذر فيه عن عدم تمكنه من الحضور الى لندن . ومعنى ذلك أن بلنت ـ فيما يبدو ـ قد دعا عبده الى الحضور وقت مروره بباريس للتشاور مع المسئولين الانجليز حول قضية مصر بعد الاحتلال .

استهل بلنت خطابه بقوله :

« إلى صديقي العزيز النبيل العالم محمد عبده ، شهيد الحرية ، أدام الله علمه .

أسعدني كثيرا خطابك ، الذي فرغت حرمنا الآن من ترجمته لى كاملاً ، فيما عدا ما ذكرته من أنك لا تستطيع الحضور الى انجلترا بعد . ولكني أرسل لك مع هذا ما تحتاجه في رحلتك من مال ، راجيا أن تفيدني بوصوله . وقد كتبت من أربعة أيام الى السيد صنوع ، ورويت له شيئا عن حالة الرأي هنا . ثم كتبت بعدها رسالة ستنشر في صحيفة « التايمز » غداً أو يوم الاربعاء . واقترحت فيها حلاً للمصاعب والعقبات الراهنة في مصر . وأرجو أن يتفق ذلك مع رأيك ، لأني اقترح فيها أن تعرض المسألة المصرية على مؤتمر أوربي ، وأن ينسحب الجيش

الانجليـزي من البـلاد ، وأن توضـع مصر تحت الحماية المشتركة من جانب الدول الكبرى ، وبذلك تحكم نفسها وفق إرادتها . واقترح أيضا أن يعقـد الصلح مع المهـدي ، وأن يستـدعى الجنـرال غوردون من الخرطوم . ولم أنس أن أوصي بإلغاء مراسيم النفي للوطنيين المصريين . أمـا فيما يتعلق بمصر وسوريا والخلافة العربية فأنت سيد من يعرف آرائي حولها لأنها منشورة بالكتاب الذي ألفته منذ ثلاث سنوات وأقمته على توجيهاتك وآرائك المفيدة » [٥١]

ثم سجل بلنت في خطابه آراءه وأفكاره حول مسلمي الهند بناء على ما رآه وسمعه خلال زيارته . وتتلخص هذه الآراء في أنه يحبذ أن يخطط المسلمـون في الهنـد من أجل التربية السياسية دون انعزال عن بقية الهنود ، وأن يؤسسوا جامعة للنهوض بالتعليم حتى يعززوا وحدتهم ، وأن يقبلوا على تعلم اللغة الانجليزية حتى يزدادوا اهتماما بالشؤون العامة .

ويبدو أن محمد عبده كان قد طلب في خطابه السابق معاونة بلنت في إصدار صحيفة « العروة الوثى » التي لم يكن قد مضى على صدورها شهر واحد . فقد قال بلنت في رسالته هذه :

« أمـا فيمـا يتعلق بصحيفتكم فيسعـدني أن أبذل كل ما بوسعي لمعاونتكم . ولكني أنصحكم بكل قواي أن تلزموا الاعتدال في لغتكم حين تكتبون عن الحكومة الانجليزية ـ لا بمعنى أن أي شيء تقولونه حول تصرفاتها في مصر يمكن أن يتجاوز غضبي ونفاد صبري ـ وإنما لأني أرى في صداقة انجلترا خير أمل للمسلمين . وصدقني أنه بالرغم من سلوك انجلتـرا خلال هذا الموضوع كله مسلك عدو الدين فما زال بين الانجليز من يتعاطفون مع آمالنا لأمم الشرق »

ومع ذلك لم يعمل الأفغاني ، ولا محمد عبده ، بنصيحة صديقهما في التـزام الإعتـدال في الحديث عن الحكومة الانجليزية . فقد استمرت « العـروة الوثقى » في كشف خبايا السياسة الانجليزية ، ولا سيما في مصر ، حتى أمـرت الحكـومة المصرية بمنعها من الدخول ، كما أمرت حكومة الهند بمنعها أيضا من الدخول هناك .

---

(٥١) يقصد كتابه « مستقبل الاسلام » الذي ظهر سنة ١٨٨١ .

ومع ذلك أيضا رد محمد عبده على هذا الخطاب بخطابه المؤرخ في ١١ ابريل ١٨٨٤ ، أي بعد أربعة ايام فقط من تاريخ كتابة الخطاب الأول . ويبدو ان البريد في ذلك الوقت كان اسرع مما هو عليه الآن في عصر الطائرات . وقد شكر عبده صديقه ـ كما مر بنا ـ على نصائحه ، وقال إن الأفغاني سيكتب الى أصدقائه في الهند بما أشار به بلنت .

وفي ١٥ أبريل سجل بلنت في يومياته أن محمد عبده وصنوع كتبا اليه وأبديا إعجابهما بمقاله الذي نشره في صحيفة « التايمز » في ١٠ ابريل . وفيه اقترح على حكومة بلاده تسوية جديدة للمسألة المصرية تقوم على أساس الجلاء واعادة المنفيين والصلح مع المهدي .

ويبدو في تلك الأثناء أن محمد عبده غير رأيه ، وقرر القيام برحلته إلى لندن ، بعد أن أرسل اليه بلنت نفقات السفر . ولكنه أخر رحلته نحو ثلاثة اشهر . وكانت هذه أول زيارة يقوم بها الى لندن . ولكنها لم تكن زيارة نزهة بمقدار ما كانت زيارة عمل ، شاهد خلالها الكثير من المعالم وقابل الكثير أيضا من الشخصيات . وبدأت يوميات بلنت في ترديد اسمه وتحركاته من خلال مضيفه ، الذي استضافه في بيته بلندن ، وهو نفسه البيت رقم ١٠ شارع جيمس ، أو « جيمس ستريت » كما كان يختصره بلنت ، حيث استضاف الأفغاني بعد ذلك .

تروي يوميات بلنت تفاصيل هذه الزيارة في كتابه « جوردون في الخرطوم » على النحو التالي ، مع ملاحظة أننا سنلجأ لفتح أقواس هنا لشرح ما يدعو الى الشرح من أحداث وشخصيات ، بدلا من الهوامش :

٢١ يوليو ١٨٨٤

وصل محمد عبده الآن من باريس . تغيرت آراؤه منذ رأيناه آخر مرة . فالشعور السائد عنده الآن هو كراهية انجلترا التي اتحدت مع كراهية الشراكسة . إنها الحكاية القديمة تعيد نفسها . فعندما تضغط أوربا وتهدد ، يقوم المصريون بتوحيد صفوفهم ، تماما مثلما فعلوا عند صدور المذكرة الثنائية (التي وجهتها انجلترا وفرنسا لمصر سنة ١٨٨١ وساندتا فيها الخديو ضد الوطنيين) والانذار (الذي وجهه قائد الاسطول الانجليز الى عرابي سنة ١٨٨٢ قبيل الاحتلال) ومع ذلك فهو (عبده) لم يتخل عن عرابي ، مع أنه يرى أن دوره قد انتهى في مصر كشخصية

سياسية . وهذا صحيح في الغالب .

٢٢ يوليو

ذهبت مع محمد عبده الى مجلس العموم . لم نجد لابوشير (عضو المجلس وصديق بلنت) ولكننا وجدنا جورج هوارد (عضو آخر صديق لبلنت) الذي صحبنا في جولة داخل المبنى . وكنت قد طلبت من عبده أن يرتدي جبته وعمامته البيضاء ، مما أشاع في بهو المجلس جوا لطيفا . وتقدم نحونا مباشرة تشيسون (عضو آخر) فدعانا إلى عشاء يقام بالمجلس في الاسبوع القادم للهنود وسواهم من الشرقيين . وأصر المصور على التقاط صورة للشيخ . وقمت بتقديمه لعدد من النواب . واستمعنا الى نائب ايرلندي ، أظنه سكستون ، راح يندد بأخطاء أيرلندا . ومن الشرفة المطلة على النهر (التيمز) أرينا عبده قارب الشرطة الذي يروح ويجيء على الماء لمنع محاولات تفجير الديناميت (لحساب الوطنيين الايرلنديين) وهو مشهد أضاف الى معلوماته . ثم وجهنا نظره نحو المستر برايت (نائب آخر) الذي انخرط على مقعده في حديث مع ناثانيل روتشيلد (النائب اليهودي الوحيد وعميد أسرته وطائفته في لندن)

وفي أقصى القاعة لمحت بارنل (النائب الايرلندي المعارض) يتمشى جيئة وذهابا وحيدا مكتئبا ، فطلبت من جورج هوارد أن يقدمنا اليه . وكان الرجل جذابا وعطوفا في الحقيقة ، معنا - على الأقل - بصفتنا رفاقا على طريق التمرد . وقد طلب من عبده أن يزوره ، وأن يزوده بالمعلومات (عن مصر والسودان) وقال : « عندنا واحد من زملائنا في مصر الآن ، وهو المستر أوكيلي (نائب أيرلندي معارض آخر كان يراسل صحيفة الديلي نيوز وقتها في دنقله) ولكننا نخشى أن تطول غيبته » فقلت له إن عبده وجمال الدين هما اللذان كتبا له الخطابات التي مكنته من الذهاب الى المهدي . وعندئذ بدت على وجهه علامات الدهشة من معرفتي لهذا الموضوع . غير ان إكتئاب بارنل وتحفظه ليسا من طبعه ، فعيناه تتألقان ، وشفتاه تكتسيان بابتسامة من وقت الى آخر ، مما يكشف عن طبيعته الحقيقية . ولا شك أنه رجل فاضل ، وأنا متأكد من أنني أستطيع التفاهم والتعاون معه جيدا . وعندما حان وقت انصرافه تغير مزاجه ، وأصبح متحمسا ، وألقى علينا كلمة قصيرة قائلا إنه تشرف بمعرفة

الوطني المصري ، وأكد أنه سعد كثيرا بمعرفتي . ووعدني بأن يكتب لي ، وأن يحدد يوما لرؤية الشيخ .

٢٣ يوليو

جاء على الافطار ميرزا باقر ، وهو صوفي إيراني (يعيش منفيا في لندن) وصحبنا ، أنا وعبده بعد ذلك ، إلى بيت السير ويلفرد لوصن (عضو البرلمان) ولكن الزيارة لم تحقق النجاح الذي كنت أرجوه . فقد وجَّه لوصن أسئلته إلى عبده بطريقة جافة أكثر من اللازم ، مما أفزعه بعض الشيء ، فلم يستطع أن يعبر عما في نفسه بوضوح على أي حال ، فيما عدا النقطة الخاصة بوجوب إنسحاب القوات الانجليزية كخطوة أولى لاعادة تحقيق السلام في مصر . وحين ذهبنا بعد ذلك الى لابوشير (نائب آخر) دار الحديث في مجمله على هذا النحو . وحاول لابوشير أن يقنع عبده بأن المستر جلادستون (رئيس الوزراء) يريد إجلاء القوات (الانجليزية) عن مصر ، وأنَّ خير طريقة للجلاء هي أن يمتنع المصريون عن دفع ضرائب طوال وجود هذه القوات . ولكن عبده اعترض على ذلك ، ومعه حق الى حدٍّ ما ، قائلا إن المستر جلادستون لم يكف عن الحديث حول الجلاء في الوقت الذي ظل يرسل فيه قوات أكبر ، ويملأ البلاد بالموظفين الانجليز . وشكا من أن الامتناع عن دفع الضرائب سيفسر بأنه مبرر للسيطرة . وعبثا حاول لابوشير إقناعه بأن هذا غير صحيح . ولم يستطع لوصن ، ولا لابوشير ، أن يوحيا لعبده بأي احساس ينم عن اخلاصهما . ويرجع ذلك إلى أنهما لا يجيدان الحديث مع الشرقيين ، فطريقتهما الجافة تبدو كأنها عداء .

وقد تناولت طعام العشاء في البيت مع عبده وباقر اللذين انخرطا في مناقشة طويلة حول سماح تقاليد السنة بالحديث على الطعام ، وهي نقطة توصلا الى حلها بشكل ودي ، وكذلك حول القرآن وهل كان في الأصل كتابا كاملا أم تجميعا لآيات شفوية . وأبدى عبده تمسكه بالرأي الاخير ، وأنا أوافقه على هذا تماما ، ولكن ميرزا العجوز أصر على أنه كتاب معجزة ، نزل كاملا غير مجزأ . وهذا أمر غريب اذا علمنا أنه (ميرزا) يتميز بالتحرر الشديد فيما يتعلق بمعظم الأمور .

٢٤ يوليو

ذهبنا الى تشرشل (العضو البارز في البرلمان في ذلك العام قبل توليه وزارة شئون الهند) ودار بيننا وبينه حديث مُرْضٍ الى حد كبير ، اذا قورن بحديثنا أمس مع لوصن ولابوشير . وكان أسلوب تشرشل موفقا تماما ، حتى أن عبده خرج في غاية السرور . وقال : « ان هذا الشاب أحكم من الآخرين ـ لوصن ولابوشير ـ وأرق قلباً » ونظرا لأنني سأسجل هذا الحديث كله وأعده للنشر في صحيفة « بال مال » ، فلن أكرره هنا . وقد وعد تشرشل بأن يوصي تشمبرلين (عضو البرلمان ووزير التجارة) بعبده، وأن يوسطه في ترتيب لقاء له مع جلادستون. وأنا واثق من امكان التوصل الى تسوية اذا تم هذا اللقاء .

٢٨ يوليو

دار حديث بيني وبين عبده . ذكر لي أسماء الأشخاص الثلاثة الذين اشتراهم سلطان باشا ، وخانوا الجيش في (معركة) التل الكبير ، وهم : علي يوسف التركي الذي كان يقود كتيبة وسط ثلاث ، وانسحب ليسمح لولسلي بالتقدم . وعبد الرحمن حسن المصري الذي كان يقود طلائع الخيالة وأهمل انذار القوات حول تقدم الانجليز . وراغب ناشد العقيد الشركسي الذي كان يحتل موقعا متقدما . فهؤلاء هم الخونة الوحيدون . أما (عبدالله) النديم فقد فر الى السودان (الصواب انه فر الى الريف المصري واختفى فيه) وأما علي فهمي (زميل عرابي) فقد هزم في (موقعة) القصاصين ، لأن محمود سامي (البارودي) عجز عن الوصول إليه في موعده . ويضيف عبده أنه إذا أعيد تشكيل حكومة وطنية ، فيجب تعيين علي فهمي وزيرا للحربية ، ويعقوب سامي وزيرا للداخلية ، وعرابي رئيسا للبرلمان ، وعبد العال (حلمي) قائدا للجيش .

عينت ميرزا باقر سكرتيرا لي لقاء جنيه واحد في الاسبوع .

ذهبت الى تشرشل ووجدته طريح الفراش .. وكان قد شغل نفسه بعبده . وسوف يصحبه غدا لمقابلة هارتنجتون (وزير شئون الهند) (٥٢)

(٥٢) عندما عاد محمد عبده الى باريس نشر ملخصا لهذه المقابلة في « العروة الوثقى » ولكنه ذكر ـ خطأ ـ انه وزير الحربية .

٢٩ يوليو

ذهبت مع عبده وباقر الى فندق كارلتون حيث قابلنا تشرشل ، وسلمتهما له ، فصحبهما لمقابلة هارتنجتون . وعادا في غاية السرور . فقد أبدى لهما هارتنجتون قدرا كبيرا من التهذيب والذكاء . ويعتقد عبده أنه ترك في نفسه انطباعا طيبا .

٢ أغسطس

سجلت حوارا مع عبده للنشر في صحيفة « بال مال جازيت » Pall Mall Gazette

٤ أغسطس

« يوم حافل مشهود » . عرضت قضيتي في مجلس العموم بعد ظهر اليوم . وقد ذهبت الى هناك بصحبة عبده ، وذهبتْ آن مع ليدي ونْتورث . وفي الصباح أصدرت وزارة الخارجية كتابا أزرق حول القضية ، ويستفاد منه أن شريف باشا (رئيس الوزراء في مصر قبيل الاحتلال) قد وجه اليَّ عددا من الاتهامات . ومن حسن الحظ أنني أستطيع ردها جميعها . أما الحكومة (الانجليزية) فلم يكن لديها أي كلمة تقولها في الحقيقة . وأيا كان ما وصلت اليه المناقشة (البرلمانية) ، فقد حققت لنا في مجموعها نصرا ، بالرغم من أنها تترك كل شيء على ما هو عليه ...

٦ أغسطس

وصلني خطاب من برودلي (المحامي الذي سبق أن وكله بلنت للدفاع عن عرابي) يقترح فيه أن أقابل ـ دون ترتيب سابق ـ اسماعيل باشا (الخديو) في بيت إسكوت (رئيس تحرير مجلة « فورتنايتلى » Fortnightly) وسوف أذهب الى هناك ، مع أنني واثق من أن اسماعيل لن يثير اعجابي ، ولكن حان الوقت لكي أعرفه . ان برودلي يعد بتحقيق الكثير للقضية الوطنية في حالة عودته (الخديو) الى مصر . وقد ذهب عبده لزيارته في الاسبوع الماضي ، ولكنهما لم يتحدثا في السياسة .

عند هذا الحد من يوميات بلنت ينتهي ذكر محمد عبده في أول زيارة له الى العاصمة التي كانت سياستها سببا رئيسيا لنفيه . وحين قابل بلنت الخديو اسماعيل بعد ظهر ٨ اغسطس ذكر في تسجيله لتلك المقابلة

التي لم يرض عنها أنه تحدث مع الخديو قليلاً عن محمد عبده ، ولكنه لم يذكر أي تفاصيل . بل انه لم يذكر بعد ذلك تاريخ إنتهاء زيارة ضيفه وصديقه . ويبدو أنها استمرت حتى صباح ٨ اغسطس على الأكثر ، لأن الأرجح أنه كان سيصحب محمد عبده معه الى تلك المقابلة العرضية مع الخديو اسماعيل .

ومع ذلك فمن الواضح أن هذه الزيارة الأولى لمحمد عبده التي دامت نحو أسبوعين قد أفادته هو شخصيا على الأقل من نواح كثيرة . فقد اطّلع بنفسه على رأي بعض المسئولين عن تخطيط السياسة الانجيزية إزاء مصر والسودان ، والمسلمين في الهند ، والدولة العلية . كما أطْلَع هؤلاء على ماكان يدور في أذهان الوطنيين المصريين وقتها ، من أفكار حول قضية مصر والسودان .. وكان حديثه الى صحيفة « بال مال جازيت » [٥٣] من الوضوح والحسم بحيث ساهم في بلورة الفكرة التي نقلها الى الانجليز . كما كان حديثه هو نفسه مع المركيز (الدوق فيما بعد) هارتنجتون الذي نشر خلاصته في صحيفة « العروة الوثقى » بعد عودته من الوضوح والحسم أيضا بحيث لم يؤد ـ مع سابقه ـ الى تناقض في الرأي أو الموقف . أما مقابلته لجلادستون فلم تتم . ولا ندري ما السبب . فلم يشر إليها بلنت بعد ذلك .

في ١٣ سبتمبر شرع بلنت في رحلة جديدة الى القسطنطينية (الاسم الأوربي للأستانة أو اسطنبول اليوم) عاصمة الامبراطورية العثمانية . ومر بلنت كعادته بباريس ، فوصلها في وقت متأخر من مساء اليوم نفسه . وكان الهدف من رحلته هذه هو ذاته الهدف القديم الذي حَدَّث الأفغاني عنه منذ أشهر ، عند عودته من رحلة الهند ، وهو « أن يحاول حث السلطان (عبد الحميد) على المبادرة بالاصلاح . اذ يجب أن يفعل ذلك الآن ، وإلا فَقَدَ زمام المسلمين إلى الأبد » ، ولكنه ـ كما يضيف ـ لا يتوقع النجاح في مهمته . فكل شيء هناك من الفساد ـ على حد قوله ـ بحيث لا يقيم بناء متماسكا .

وفي باريس قابل بلنت أصدقاءه « اللاجئين » مرة أخرى . ففي ١٤ سبتمبر يكتب : « جاء عبده وصنوع على العشاء ـ كلاهما فاقد الأمل

---

(٥٣) الحقه بلنت بكتابه « جوردون في الخرطوم » وقد سبق ترجمته ونشره . انظر : الأعمال الكاملة . ج١،ص ص ٦٣٠ ـ ٦٣٤. وقد مرت بنا ترجمته الجديدة.

فيما يتعلق بأمور مصر » وفي اليوم التالي يكتب : « تناولت العشاء مع عبده وجمال الدين ، وجلسنا في مقهى على الشارع حتى وقت متأخر » وبإستثناء هاتين الإشارتين إلى محمد عبده لا يعود بلنت إلى ذكره بعد ذلك في متن الكتاب . ولكنه يضم إلى الملاحق العديدة للكتاب نصوص الرسائل التي تبادلها مع عبده في تلك الفترة وحديثه إلى صحيفة « بال مال جازيت » ، وتعليقه على تصريح لأحد ضباط الجيش الانجليزي حول أحداث الشغب السابقة .

بهذا تنتهي مرحلة أخرى من مراحل علاقة بلنت بمحمد عبده . وهي مرحلة بدأت بنفي عبده ، وانتهت بسفر بلنت الى تركيا ، أي من أواخر ١٨٨٢ إلى أواخر ١٨٨٤ ، بما يعادل نحو سنتين . ولا تبدأ المرحلة التالية إلا بعد عودة محمد عبده إلى مصر سنة ١٨٨٩ ، أو بمعنى أدق لا يظهر اسم عبده في يوميات بلنت الا عام ١٨٩٠ ، أي بعد نحو عام من عودته إلى مصر ، وستة أعوام منذ ظهور اسمه آخر مرة عام ١٨٨٤ ، على الرغم من أن بلنت نفسه بدأ في تسجيل الجزء الأول من يومياته ، التي ظهرت بعنـوان « يوميـاتي » ، سنة ١٨٨٨ . وليس هناك سبب للإعتقاد بأن العلاقة بين الرجلين قد انقطعت بخصام أو ما أشبه خلال تلك المدة . فلا توجد إشارة إلى ذلك في كتاباتهما ، فضلاً عن أن بلنت لم ينشر شيئا في الفترة الواقعة بين تاريخ صدور كتابه « جوردون في الخرطوم » وتاريخ صدور الجزء الأول من يومياته ، أي بين عامي ١٩١١ ـ ١٩١٩ . ولكن من الواضح أن محمد عبده كان في حاجة إلى الإبتعاد عن بلنت فور عودته إلى مصر ، لأن بلنت كان على رأس الانجليز المغضوب عليهم في مصر ، إن لم يكن في انجلترا أيضا . وقد أشار هو قبل قليل إلى قضيته التي أثيرت في البرلمان الانجليزي ، وملخصها أنه منع من دخول مصر بعد أحداث ١٨٨٢ ومناصرته للقضية الوطنية . وظلّ ذلك المنع ساري المفعول نحو ثلاث سنوات . وكان من الطبيعي ـ والحال هذه ـ أن يبتعد هو نفسه عن صديقه محمد عبده ، حتى لا يصيبه بالضرر . ومن ناحية أخرى ظل محمـد عبده ـ بعد عودته ـ يعيش في الظل ، مغضوبا عليه تقريبا من الخديو والانجليز ، متنقلا في القضاء بين بنها والزقازيق حتى نقل إلى القاهرة عام ١٨٩٠ ، أي في العام نفسه الذي شهد ظهور اسمه من جديد في يوميات صديقه الانجليزي المعادي لسياسة الانجليز في مصر .

٣ ـ رشحه بلنت للأوقاف وعينه الخديو مفتيا للديار

نال محمد عبده مكانا بارزا في يوميات بلنت بجزئيها ، ابتداء من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٥ التي توفي في صيفها . وشكلت تلك الفترة التي تقرب من ١٥ سنة المرحلة الأخيرة في علاقتهما ، وهي مرحلة إتّسَمت بميلهما المتبادل الى الاعتدال في الرأي والمواقف بشكل عام ، ربما بسبب السن ، فقد تخطى الاثنان الأربعين وقتذاك ، وربما بسبب الإحباط ، فقد عجز الاثنان عن تحقيق أهدافهما الكبيرة . مثل استقلال مصر ، ووحدة المسلمين ، وعودة الخلافة الى العرب ، وربما بسبب الوضع المعادي لهما بعد احتلال مصر ، وربما ـ أخيرا ـ بسبب هذا كله مجتمعا .

ونبدأ بالجزء الأول من اليوميات ، فتطالعنا الاشارة الى محمد عبده ابتداء من يناير ١٨٩٠ . وكان بلنت قد جاء الى مصر ـ للمرة الثانية ـ بعد السماح له بدخولها عام ١٨٨٦ . واستقر في بيته الذي يتوسط بستانا كبيرا للفواكه بضاحية عين شمس شمال شرقي القاهرة ، وهو بيت درج على تسميته مع البستان باسم « الشيخ عبيد » نسبة الى شيخ بهذا الاسم مدفون وسط الحديقة . ولكن بلنت منذ زيارته السابقة ، على هذه عام ١٨٨٩ ، كان قد قرر في نفسه شيئا جديدا . فلم يحاول من قريب أو بعيد أن يتصل بسلطات الاحتلال ، وعلى رأسها السير إيفلين بارنج القنصل العام ، والمقيم البريطاني ، وأعلى سلطة في ذلك الوقت قبل أن يصبح « اللورد كرومر » . وقد حدث قبل مجيء بلنت الى مصر هذه المرة أن قابل في روما اللورد دوفرين السفير الانجليزي في الآستانة سابقا ، ونائب الملكة في الهند ، فأكد له أن بارنج لم يعد غاضبا منه ، وأن من المناسب أن يزوره . وأحس بلنت بشيء من التشجيع ، وانتعشت بداخله أحلامه القديمة ، وفكر في المساهمة في العمل على إعادة الحكم غير الإستبدادي إلى مصر ، ولا سيما بعد أن سمع عن كرومر أنه أصبح معتدلا ، يصغى للرأي الآخر بإخلاص ، ويعامل زواره الانجليز ـ حتى من كان منهم متطرفا ـ بأدب جم بعيدا عن المكر والدهاء الدبلوماسيين .

نعود الى يوميات بلنت . وندع المجال لكلماته وطريقته العفوية في تسجيل الحوادث وتصوير الشخصيات ، مع ملاحظة استمرارنا في

الشرح الفوري بين الأقواس لما يستحق الشرح :

١٢ يناير ١٨٩٠

ذهبت أمس لمقابلة السير ايفلين بارنج بناء على موعد . ولم أكن قد زرته منذ لقائنا سنة ١٨٨٣ . ولكن الزيارة تحققت على النحو التالي : عندما كان الأمير واجرام (الفرنسي) هنا قبل اسبوعين ـ وكان قد جاء بعدنا الى مصر في نهاية العام الماضي ـ أبلغني رسالة شفوية من بارنج بأنه يسره أن أذهب لرؤيته . ولم أكن في ذلك الوقت واثقا من كيفية الاستجابة للدعوة ، فأجلت اتخاذ أي خطوة ، ولكن حدث أن زارني يوم الأحد الماضي محمد المويلحي (الأديب مؤلف « حديث عيسى بن هشام ») فروى لى أخبار حركة سير الأمور من الناحية السياسية . وأكد لي أن الناس أصبحوا أكثر توافقا مع الأوضاع ، وأن رياض (رئيس الوزراء) سمح لهم بقسط أكبر من الحرية الشخصية ، وأن توفيق اعتزل العمل السياسي تماما . وقد سمح بعودة جميع المنفيين تقريبا ، وعين محمد عبده قاضيا في بنها . ونصحني (المويلحى) بأنني ، والحال هذه ، يجب أن استجيب لمبادرة بارنج حرصا على مصلحة عرابي . وقال لي ان هذه الاستجابة تزيد فرص نفوذي ، لأن الناس كانوا يخشون وقتها التردد عليّ ، خوفا من سخط بارنج . ولم يكن من رأي المويلحى أن رياض يعاديني ، في حين رأى أن العداء من جانب الخديو بلا شك . ومع ذلك كان الخديو سريع التأثر ، فاذا رأى أن بارنج لا يعاديني ، فسوف يعتقد أن من الأضمن له أن يحذو حذوه . وقد رأيت أن هذه نصيحة سديدة . وبناء عليها كتبت مذكرة إلى بارنج أفيده بأنني تلقيت رسالته الشفوية من واجرام ، وأطلب منه تحديد موعد لرؤيته . فرد عليَّ بأدب جم . وهكذا تم ترتيب زيارتي .

وجدت بارنج في مكتبه في الساعة الثانية ، ومكثت معه نحو نصف ساعة ... ذكرت له إنني سمعت أن محمد عبده قد عاد وتسلم وظيفة ، فأثنى كثيرا على الشيخ ، وقال إن كل المنفيين تقريبا قد عادوا . »

(تكررت زيارات بلنت لكرومر بعد ذلك . وشيئا فشيئا قوى حبل المودة بينهما ، وازداد سماع كرومر لرأي خصمه القديم ، حتى عاد بلنت إلى انجلترا في الصيف . ولما جاء إلى مصر مرة اخرى في خريف ذلك العام

وصل ما انقطع من زياراته لكرومر ، الذي لم يكن يقبل على الأهالي . فكان هؤلاء يأتون بمشكلاتهم الى بلنت ، فيرفعها الى كرومر ، حتى تجد حلا . وفي إحدى زياراته حدثه عن بعض أفكاره بعد أن فشل في اقناعه باعادة عرابي من منفاه) .

قال بلنت :

« ولما فشلت في هذا بشأن عرابي ركزت سعيي وقتها على محاولة جذب اهتمامه نحو الأعضاء الآخرين للحزب الوطني السابق . وكنت في ذلك الوقت أحظى كثيرا بزيارات صديقي القديم الشيخ محمد عبده ، الذي أصبح جاري في الاقامة بحكم عمله كقاض لمدينة بنها عاصمة منطقتنا . وبناء على اقتراح منه قدمت لبارنج خطة تقضي بالاستعانة بهؤلاء الوطنيين القدامى في مجالسه ، وتشكيل حكومة من الفلاحين المصريين مكان الباشوات الشراكسة الذين كانوا يشكلون حتى ذلك الوقت الطبقة الوحيدة من المسلمين المسموح لها بتولي الوزارة في ظل النظام العائد منذ (موقعة) التل الكبير » .

(ثم يعود بلنت الى يومياته فيبدأ بالحديث عن عصابات اللصوص في القاهرة وضعف الأمن :)

١٤ مارس ١٨٩١

« وصلت الى نتيجة فيما بعد مؤداها أن التسامح الذي استمتعت به العصابات طويلا كان يرجع الى التغاضي الضمني من جانب رياض ، مع عدم الكفاءة ، والارتباك من جانب بيكر (باشا مدير الشرطة الانجليزي) الذي أعفى من منصبه (عقب ازدياد حوادث السرقات الليلية) وقد استغللت ذلك في رسم عبرة لبارنج ، فكتبت له رسالة أجملت فيها الحجج التي تدعم رأيي حول ضرورة تأليف حكومة من الفلاحين (الأهالي من غير الأتراك أو الشراكسة أو الشوام) ، وأرسلت له قائمة بأسماء رجال حزب الفلاح (ذوو الاصول الفلاحية . فلم يكن هناك حزب بهذا الاسم) الذين يمكنهم تأليف وزارة اصلاح . وقد أعددت القائمة بالتشاور مع الشيخ محمد عبده ومحمد المويلحى . وهذه هي الأسماء :

بليغ بك

أمين بك فكري

سعد أفندي زغلول
أحمد أفندي محمود
ابراهيم أفندي الوكيل
أحمد بك حشمت
يوسف بك شبوقى
الشيخ محمد عبده

ومما يجب ملاحظته أن هذه القائمة تضم اسم سعد زغلول الذي عينه كرومر بعد ١٥ سنة وزيرا للمعارف العمومية ، كما تضم اسم الشيخ محمد عبده الذي عين بعد ذلك مفتيا للديار المصرية ، والذي قال عنه كرومر إنه الأمل الرئيسي للاصلاح الاسلامي في مصر . ومع ذلك أضاع كرومر فرصته الحقيقية حين تجاهل توصيتي بحسن الشريعى ، الذي كان ثقله السياسي أكبر من ثقل أي من هؤلاء. وقد مات قبل ان يقنع بارنج نفسه بقبول وزارة من الفلاحين . ومع ذلك فقد أجاب بارنج : « لا أعتقد أن هناك أدنى فرصة لأن يشكل الخديو وزارة من الفلاحين »

٢٠ يناير ١٨٩٢

زارني الدكتور عبد الرزاق بك .. الذي كان أحد الأصدقاء الشخصيين لعرابي وأحد كبار مستشاريه ، فهو يعرف أوربا جيدا ويتحدث الانجليزية والفرنسية ، مما كان نادرا في ذلك الوقت . وبناء على نصيحته ونصيحة الشيخ محمد عبده الذي كون رأيا مؤيدا للخديو الشاب عباس بعد اعتلائه العرش محل ابيه. (توفى في ٧ يناير من ذلك العام) قررت أن الوقت قد حان أمامى لعقد صلح رسمي مع الحكومة المصرية . وقد كان من الصعب أن أفعل هذا في حياة توفيق ، لأنني اشتركت في الثورة على نحو بارز أكثر من اللازم ، ونددت بتوفيق علنا بعدها الى درجة تجعل من المستحيل علي أن أتخذ أي خطوة نحو الصلح ، وأن أقدّم احتراماتي اليه بالمثول الى القصر . ولكن أصدقائي رأوا عند ذاك وجوب السعي في طلب لقاء خلفه . وبناء على ذلك طلبت من بارنج أن يقدمني الى عباس بطريقة رسمية ، نحو ما جرت عليه العادة مع سواي من الانجليز الذين يزورون مصر . (قام بارنج بالمهمة وتم التعارف في قصر عابدين في أول فبراير ١٨٩٢)

٢٤ فبراير ١٨٩٣

جاء الشيخ محمد عبده على الغداء ومكث طوال فترة العصر . لم أكن قد رأيته منذ الانقلاب (تعبير تقديري عن سياسة كرومر المتسلطة) وكنت متشوقا لسماع رأيه . وهو يؤيد رياض بوضوح ، ويقول إنه رجل يعتمد عليه بعكس تيجران (باشا الأرمني وكيل وزارة الخارجية) أو بطرس (غالي باشا) فتيجران وأرتين (نوبار باشا رئيس الوزراء الارمني) والمسيحيون عموما يبذلون كل ما في وسعهم للقضاء على التربية الاسلامية . أما رياض فهو مستبد ، ولكنه شريف . ثم أبدى رأيه في مختلف رجال الانجليز العاملين في مصر . ويقول إن أفضلهم سكوت وجارستين وكوربيت ، وإن النفوذ الانجليزي لم يتحطم في السنوات الاخيرة إلا باستقدام كثير من الإنجليز القليلي الشأن . وضحك كثيرا عند ذكر والاس ومدرسة الزراعة التي انشأها ـ كان الأساتذة فيها يستقون معلوماتهم عن الزراعة من الفلاحين ـ وكذلك عند ذكر ويلكوكس واصلاحاته في اللغة العربية . وهو سعيد جدا لأنني سأقابل الخديو . ويريدني أن أركز على إفهامه ضرورة التعاون مع رياض ، والاستعانة بشباب المسلمين ، لا بالأرمن ولا بالشوام ، ومراعاة الدستور . وقال : « نحن لا يهمنا أن يبقى الانجليز عاما أو عامين أو خمسة أعوام ما داموا لن يبقوا إلى الأبد . ووجودهم حاليا خير للبلد ، حتى يختمر حزب الفلاح . ولكن اذا لاح خطر السيطرة علينا فنحن على أتم استعداد للمخاطرة بقبول بعض استبداد الاتراك ، أفضل من قبول المخاطرة الأخرى الكبرى . أما اذا جلوتم عن البلاد غدا فثق أننا سنسعد جميعا » وأغلب الظن أن عبده هو أكثر المصريين حبا للانجليز .

١٢ ابريل

ذهبت الى القاهرة (من عين شمس) حيث صحبت سلطان يوهور (المسلم الذي جاء من الملايو في جنوب شرق آسيا لزيارة مصر في طريقه الى تركيا) الى الشيخ البكري (نقيب الاشراف) وقمت بدور المترجم له .. وراح يروي عن حبه الجلوس على الأرض ، وتناول الطعام بأصابعه كلما ضمه البيت مع زوجته وأمه . وأراد أن يعرف ما إذا كان أحد في القاهرة يفعل ذلك ، ولكن القاهرة تنتشر فيها المقاعد والأرائك الأوربية .

وقد وعدناه بأن نريه ذلك أيضا . ومن المفروض أن يذهب لزيارة محمد عبده .

وذهبت بعد ذلك ، بمفردي ، في صحبة محمد عبده لزيارة مختار باشا (مندوب السلطان العثماني في القاهرة) وتحدثنا طويلا عن الموقف السياسي ...

١٢ ابريل

تناولت الغداء مع تيجران . وأعتقد أنه متحمس في وطنيته مع أنه أرمني .. ويرى أن محمد عبده خير من يتولى إصلاح الأزهر وطلب مني إرساله اليه .

٣١ ديسمبر

تناول محمد عبده الغداء معنا يوم الجمعة . وهو راض تماما عن الطريقة التي تجري عليها الأمور هنا . ويقول ان رياض يتعاون مع الخديو جيدا ، ويوافق على عمل المجلس التشريعي . أما بالنسبة للقسطنطينية فيقول ان السلطان مجنون ، ولا جدوى من التعاون معه . ولما تحدثنا عن جامعة الأزهر (المقصود الجامع الأزهر) قال إنه لا يوجد سوى شيخ واحد يصلح شيخا للأزهر على أساس مستنير ، وهو حسن الناوي (المقصود حسن النواوي)

١٥ ابريل ١٨٩٤

قضى محمد عبده اليوم معنا . ويقول ان الحزب الوطني أصابه اليأس نتيجة استقالة رياض ، وما زال أكثر يأسا بسبب عودة نوبار الى الحكم ، لأن نوبار يعني عهد جامعي المال والمضاربين ، وحكم مصر بالأوربيين والشوام والغرباء من كل أرض .

٢٠ ابريل

آخر يوم لنا في « الشيخ عبيد » . أصابني الحزن لتركي له هذا العام أكثر من أي عام مضى . وقد استقر رأيي ـ الى حد ما ـ على أن تكون هذه آخر زيارة لي لانجلترا . فبيتي الحقيقي في مصر وهذا ما يزداد في نفسي

مع الأيام ..

(يروي بعد ذلك عن فشل الحركة الوطنية في سنتي ١٨٩٢ ـ ١٨٩٤ لغياب الزعامة القومية ، وصغر سن الخديو عباس وعدم خبرته ، وإصرار اللورد كرومر على المضي في السياسة الاستعمارية ، فضلا عن مصالح المال في لندن وباريس ثم يقول :)

لقد كان التاريخ يكرر نفسه مئات المرات ، تاريخ التلاعب الإنجليزي بولايات الأهالي في الهند . وكان المشهد في نظري محزنا ، فهي فترة خاوية ، اتخذت خلالها ـ برغم احتفاظي بالاهتمام العميق بما كان يجري ـ موقع المتفرج كلية ، دون أن أفقد صلتي بالسياسة المحلية اليومية خلال زيارتي الشتوية للشيخ عبيد . وكان مصدري الأساسي في هذه الصلة هو الشيخ محمد عبده الذي أسكنته بيتا ريفيا على قطعة من أرضي تبعد عن بيتي نحو نصف ميل . وكان له فضل علي كمؤرخ وكاتب يوميات يتمثل في كونه صديقا حميما لمصطفى فهمي (رئيس الوزراء في ذلك الوقت وحمو سعد زغلول) الذي لم يكن يخفي عليه شيئا ، ولا كان عبده يخفي عني شيئا .

٣٠ نوفمبر

تناول الشيخ محمد عبده الغداء معنا . وهو يقول لي إن أفكار الخديو لم تتغير عما كانت عليه في السنة الماضية ، وما يزال حانقا على كرومر والاحتلال ، وإن السلطان منعه من اتمام زيارته لانجلترا في الصيف الماضي ، عدا أشياء كثيرة أخرى ، ولكن الخديو عطوف جدا عليه (عبده) الآن ، استقبله مقابلة خاصة دامت ٣٥ دقيقة ، حقق خلالها رغبته الطويلة في منحة قدرها ٢٠٠٠ جنيه سنويا لجامعة الأزهر . وقد تقرر تشكيل لجنة للإشراف على إنفاق المبلغ . غير أننا تحدثنا عن الأحداث القديمة . وروى لي مرة أخرى تاريخ إغتيال اسماعيل صديق المفتش (وزير مالية الخديو اسماعيل) على يد اسحق بك فوق ظهر يخت الخديو . فقد خنقه اسحق بيديه . ويقول ان هذا قد تم في النهر بلا شك ، أمام قصر الجزيرة ، فور إعتقال الخديو لاسماعيل صديق . كما روى لنا قصة مغامرة علي باشا شريف مع الرقيق . فقد اعتقل قومنا (الانجليز) في الفترة الأخيرة على باشا شريف بتهمة الاتجار في الرقيق ،

مع أنـه ربمـا كان أكبـر الشخصيـات الحالية في مصر سنا وأكثرهم احتراما ، فضـلا عن أنه رئيس المجلس التشريعي . ومع ذلك فقد تصرف (هذا) البـاشـا بغبـاء شديد « مثل الاطفال » على حد تعبير عبده . وحقيقة الامر أنه بدأ يعاني من خرف الشيخوخة . ومع ذلك تعلق على نحو غبي بامرأة ، وراح ينفق عليها وقته وماله ، واشترى لها العبيد . كما روى لنا (عبده) عن مشروعات نوبار الحالية لجمع المال وهو في الحكم ، وكذلك عن فضائح أخرى وقعت خلال بالصيف .

٢٨ نوفمبر ١٨٩٥

... نزلت اليوم الى القاهرة ، وقابلت اللورد كرومر فقال لي إنه أرسل إلى كتشنر (الجنرال اللورد حاكم السودان) خطابي [٥٤] الذي كتبته . وسوف يبلغني بالرد عند وصوله . ثم حدثني عن أشياء أخرى ، وعن إمكان تعيين محمد عبده رئيسا للأوقاف . وقد أيدته في هذا كل التأييد بلا شك .

١٦ ديسمبر

نزلت الى القاهـرة لمقابلة الخديو (عباس الثاني) ... سألني عن الأحوال في الجزيرة العربية ، وقال لي إنه استقبل ابراهيم بن ثنيان (ابن سعود النجدي الذي كان لاجئا في الآستانة ثم فر إلى مصر) ولكن الشيخ محمد عبده حَذَّره من أن يكون جاسوسا للشيخ ابى الهدى (الصيادي مستشار السلطان ومنجمه) فقلت له انني لا أعتقد هذا. ولكن لا مانع من الحرص.

١٦ يناير ١٨٩٦

جاء محمد عبده و م . أرمينيان (أرمني مصري موظف في الحكومة) وتحـدثت مع عبده حول موضوع الجلاء بشكل شامل . وهو يقول إنه برغم صلته الوثيقة بالخديو ، فليس من المفيد أن يوثق به فيما يتصل بالسلطة ـ ويجب أن تستقل عنه الوزارة قدر الامكان ، وأن تستند الى

(٥٤) كان بعض اهالي دنقله قد شكوا لبلنت من رفض الانجليز عودتهم الى ديارهم وطلبوا تصريحا بذلك . فكتب بلنت الى كرومر معززا مطالبهم .

دستور . ويعتقد أن هذا أمر أساسي . ومن الممكن ايجاد رجال أكْفاء يستطيعون كوزراء أن يصدوا تغلغل الخديو ، من خارج نطاق الموجودين حاليـا في الوزارة ، الذين هم مجَـرَّد دمى . وليس من المفـروض عزل الوزراء ، ما دام مجلس النواب يؤيدهم . واذا استطعنا الحصول على تأييد الفرنسيين لهذه الخطة ، فإن الجلاء يصبح أمرا في غاية البساطة .

١٤ مارس

زارني محمد عبده اليوم . ويقول لي إن هناك احتمالا الآن بالسماح بعودة عرابي ، الى قبرص أولا ، ثم الى مصر . وقد حدثه عن ذلك مصطفى فهمي رئيس الوزراء ، وقال له إن كرومر لا يمانع اذا وافق الخديو . وإذا صح هذا فلا بد من تدبير الأمور .

٢٤ مارس

زارني الشيخ محمد عبده وروى لي عما يجري في القصر . فهو يقابل الخـديو الآن مرتين في الاسبوع ، ويؤم الناس للصلاة يوم الجمعة في مسجـد (قصر) القبـة ، ويحـذف اسم السلطان (العثمـاني) من الدعاء . وقد كان مع الخديو قبل قليل ، وفي أثناء ذلك جاءت رسالة من اللورد كرومر يشكو فيها من اعلان الخديو ، في حديث خاص ، عن رفضه فكـرة حملة دنقله . ولكن الخـديـو غضب جدا من الرسالة ، وبعدها استقبل اللورد كرومر فكرر عليه شكواه . ورد الخديو بأنه سبق أن اتفق مع جنابه حول هذه النقطة ، فاعترض اللورد كرومر ، وقال ان الموافقة تمت على هذا ، وان من اللازم إضفـاء الجـدية والقبول عليها ، ورجا الخديو أن يتحدث الى الجنود بهذا المعنى . وقد فعل الخديو ذلك . وجاءه اللورد كرومـر ايضا برسالة من اللورد سالسبوري (رئيس الوزراء) يعتـذر فيها عن وقوع « خطأ شكلي » من جانب الحكومة الانجليزية ، حين أمـرت بتقدم الجيش نحو دنقله قبل إبلاغ سموه . وشرح اللورد سالسبوري أن زحف الجيش قد تقرر بهدف « إرضاء الرأي (العام) المصري » وقد روى الخديو هذا كله لمحمد عبده ، ولا أشك في صحته .

١٧ ابريل

في صباح الغد نغادر مصر الى انجلترا . وقد جاءنا محمد عبده أمس ومعه شاب تركي من أنصار الحزب الحر في القسطنطينية . وكان حتى وقت قريب موظفا في البنك العثماني . ولا يبدو على أمل فيما يتعلق بما يجري على ضفتي البوسفور ...

روى لي محمد عبده تفاصيل حول الغارة التي شنت على الزنوج في مصر . فقد أمسكت الشرطة أكثر من ٨٠٠ زنجي من أجل كتشنر ، وسلكتهم في الجيش . وفي بعض المديريات كان يجري القبض على كل شخص أسود مهما كانت سنه ، ثم يرسل الى القاهرة ، حيث يتم التحفظ على الصالحين للجندية ، ويطلق سراح الباقين ليهيموا في الشوارع . ومع ذلك تتحدث حكومتنا (الانجليزية) عن القضاء على تجارة الرقيق كهدف من أهداف هذه الحرب في السودان . ولا شك أن المائتي زنجي الذين أخذهم رودس (سيسيل رودس المستكشف الانجليزي) الى جنوب افريقيا قد تم شراؤهم من حكومة زنجبار التي جمعتهم من هنا . وفي الغارة الأخيرة كان الزنوج ذوو المراكز المحترمة يتعرضون للامساك ، ومنهم ابن بواب الخديو ، وخادم الشيخ العباسي شيخ الأزهر ، وكاتب في المحاكم الأهلية بالقاهرة يتقاضى سبعة جنيهات في الشهر . وقد تم تخليص هؤلاء ، ولكن كثيرين جدا غيرهم أرسلوا (الى الحرب) .

٤ ـ بين نزوات الخديو واستبداد اللورد

٩ نوفمبر ١٨٩٦

زارني الشيخ محمد عبده اليوم وتحدثنا طويلا عن الخديو . وعبده غير راض عن بعض تصرفات سموه ، ولا سيما فيما يتعلق بنزاع حول أرض له مع حسن موسى العقاد . (شيخ تجار القاهرة زمن الثورة العرابية وأحد الذين حوكموا ونفوا) وهو يصف سلوك الخديو في ذلك بأنه صبياني ، وهذا صحيح . ويقول إن زواجه (الخديو) كان من تدبير أمّه من أوله لآخره . فعندما عاد عباس من أوربا لأول مرة كان يريد أن يبقى أعزباً بعيدا عن النساء . ولكنه اختار في النهاية زوجته الحالية . وقد خاب أمله من جديد هذا العام حين ولدت له بنتا ثانية ، بدلا من ولد .

٢٩ نوفمبر

تحدثت طويلا مع محمد عبده قبل أيام . كان قد قرأ مقالي عن ارمينيا الذي نشرته مجلة « القرن التاسع عشر » Nineteenth Century ووافقني على كل ما ذكرته ضد عبد الحميد (السلطان) وهو يراه رجلا مجنونا يجب خلعه . وروى لي حكاية طريفة عن اضطهاده في الأزهر من جانب شيوخ العلماء التقليديين في عصر اسماعيل ، ولا سيما الشيخ عليش . ويقول انّ تلاميذه بلغوا ذات مرة ٤٠٠٠ طالب كانوا يحضرون محاضراته ، ولكن المعارضة المحافظة كانت أقوى منه . و مع ذلك فالقاهرة على قدر كبير من حرية التفكير والتعبير حتى في تلك الأيام . ولم تسؤ الحال هنا من قبل قدر ما هي سيئة الآن في القسطنطينية ، ولكن جميع الأفكار البالية في الحرية والانسانية في طريقها للاختفاء السريع من العالم . ونحن نجد نفسينا ، عبده وأنا ، وحيدين تقريبا في آرائنا .

٢٢ ديسمبر

جاءنا محمد عبده أمس . وروى لي الأخبار . فقد حدث لغط كبير بسبب تصديق محكمة الاستئناف الأهلية على براءة الشيخ علي يوسف . وكان علي يوسف قد قدم للمحاكمة بسبب نشره تلغرافا في صحيفته

« المؤيِّد » يتصل بالأحداث العسكرية أثناء حملة دنقله ، وقيل إنه تلقاه من موظف تلغراف يدعى كيرلس . وكان الدليل ضد علي يوسف واهياً للغاية ، أما الدليل ضد كيرلس فكان مجرد ظن . فقد شوهد الأخير ذات مرة وهو يقوم بنسْخ تلغراف ، بغية إرساله إلى إحدى الصحف في الغالب ، ولكنه ليس التلغراف المعني هنا . أما علي يوسف فلم يثبت ضده أيُّ دليل على الاطلاق . ومع ذلك يبدو أن كرومر قد أصر على المضي في معركة ضد الصحافة ، فلما وصلت القضية امام محكمة الاستئناف طالب القاضي الانجليزي كاميرون زميليه الوطنيين بأن يدينا المتهم ، وإلا عرَّضا محكمة الاستئناف الأهلية لاجراءات « إصلاح » قوية تتخذ ضدها . كما اتهمهما بالتواطؤ مع الخديو ، وعندما رفضا بإباءٍ إدانة المتهم رفض كاميرون الجلوس معهما في جلسة الحكم بالبراءة . وقد أعلن كرومر الآن أنه سيضيف إلى هيئة المحكمة عددا من المستشارين الانجليز حتى يقضي على الاغلبية في أعضاء هيئات المحاكم من الأهالي . ويؤكد لي عبده أن الحقيقة تبريء الخديو من أن يكون له أي دخل في الموضوع ، وأن القضاة ما كانوا يستطيعون الحكم بشيء آخر في وجود الأدلة التي أمامهم .

ويضيف عبده أن اللورد كرومر خاضع لتأثير بعض الشوام ، ومن أهمهم محرر جريدة « المقطم » وشخص يدعى شكور . وقد أصبح للصراع والنزاع بين كرومر والخديو طابع شخصي جدا .

(كان محرر « المقطم » هو فارس نمر (باشا) الذي تعاون مع الانجليز منذ هجرته من بيروت مع زميله يعقوب صروف محرر « المقتطف » سنة ١٨٨٤ . فلما صدرت « المقطم » سنة ١٨٨٨ حافظت على صلتها بالانجليز ، حتى توقفت مع زميلتها في أواخر ١٩٥٢ ، بعد ثورة يوليو . أما شكور الذي ذكره بلنت فهو ملحم شكور (بك) أحد المهاجرين الشوام ومن أقطاب الماسونية في مصر وأعوان كرومر)

١٧ ابريل ١٨٩٧

جاءني عبده بأخبار عن نشوب الحرب بين اليونان وتركيا . واتفق رأينا على أنه من الأفضل أن تتطور الأمور الى الحرب .

٢٦ نوفمبر

جاء الشيخ محمد عبده لزيارتي . وروى لي ما يدور من أخبار السياسة والقصر . وآخرها حول شاب قدم للمحاكمة بتهمة العيب في ذات الخديو والتعريض به في شعره . ويؤكد لي عبده أن المحركين الحقيقيين لهذا الموضوع هم محرم باشا شاهين والشيخ البكري بالاشتراك مع الشيخ أبي الهدى (الصيادي) في القسطنطينية . وقد دبروه بهدف إرضاء السلطان . ومع ذلك ورط كرومر نفسه فيه . ولكي يحصل على حكم بالادانة في القضية ، أو بمعنى أصح لكي يستر بعض الأشخاص المتورطين فيها من أنصار السياسة الانجليزية قام بتعيين كوربت الانجليزي في مكان النائب العام المصري في المحاكم الأهلية . ومازال الخديو على خصام مع السلطان . وقد نظمت القصيدة (التي عابت في الخديو) لارضاء جلالته . ولكن من سوء الحظ أن خطأ وقع في طباعتها ، حين هجا الشاعر الخديو بأنه « تركي » . وبذلك تساوى يلدز (قصر السلطان) في الاهانة تقريبا .

(كان الشاعر الشاب الذي هجا الخديو هو مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ ـ ١٩٢٤) . وكان مطلع القصيدة :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وإن طال المدى سيبيد

أما البيت الذي ذكر بلنت أنه أساء الى يلدز فهو :

فلما توليتم طغيتم وهكذا إذا أصبح التركي وهو عميد

وقد حكم على المنفلوطي بالسجن سنة وغرامة قدرها ٢٠ جنيها ، ثم عدل الحكم عند استئنافه الى ستة أشهر مع الغرامة ، بالرغم من أن القصيدة ـ ٢٥ بيتا ـ نشرت فيما يشبه المنشور دون توقيع)

٢٥ فبراير ١٨٩٨

تردد أن كرومر سينقل الى وزارة الخارجية . فالمحافظون يريدون الآن رجلا قويا حتى يحققوا سياستهم القائمة على العنف ، وكرومر يناسبهم . ولست أهتم بالطريقة التي تجري بها الأمور ، لأن زمان الرشد قد ولّى . ولن يحدث أي تغيير حتى تتهاوى الإمبراطورية .

وسيتربع كرومر على صمام الأمان الامبراطوري كما يتربع سواه . وقد جرى بيني وبين محمد عبده حديث طويل اليوم حول هذا وغيره من الأمور .

٩ مارس

غادرت مصر الى انجلترا . وقد جاء محمد عبده لتوديعي . كنت أعاني ألماً بالغاً ، حتى أنني شعرت بأني أكاد أموت . وفي مثل هذه الظروف منذ عامين كنت لأعلن إسلامي بين يديه ، ولكني لن أفعل ذلك اليوم ، مع أنني تأثرت كثيرا لفراقه ، كما لو كنت ألقى آخر كلمات على صديق عزيز ، ولكني أشعر الآن أن هذا كله وهم . فالمسلمون الذين يؤمنون اليوم لا يزيدون على الوحوش المفترسة ، مثل رجال سيوه ، والباقون فقدوا إيمانهم . ومع ذلك لا تغريني المسيحية كثيرا . ولست أرغب في الحياة مرة أخرى ، وإنما أرغب في فناء القبر .

(لم تتحقق رغبة بلنت على أي حال ، فقد عاش ٢٤ عاما بعد ذلك . ولكن هذه الفقرة الحزينة المؤثرة تردنا الى توضيح نقطتين : الأولى أن بلنت تربى تربية كاثوليكية ، ولكنه عاش على عداء مع الكنيسة ، والأخرى أن عداءه للكنيسة ومصادقته للمسلمين قرباه من فهم تعاليم الاسلام . وكانت صداقته لمحمد عبده توشك أن تدخله في زمرة المسلمين . ولكن وقع له في صحراء مصر الغربية حادث خطير رده عن سبيله إلى الإسلام . فمنذ أحداث الحركة المهدية في السودان سنة ١٨٨٢ بدأ بلنت يتعلق بهؤلاء المجاهدين الزاهدين المسلمين . ثم اشتد تعلقه حين سمع الكثير عن حركة أخرى معاصرة لتلك ، هي الحركة السنوسية في صحراء مصر الغربية وليبيا ، فصمم على الاتصال بشيوخها ومعرفة تعاليمهم ، ظنا منه ـ كما يقول ـ بأن السنوسية أفضل المسلمين في العالم . وفي ٥ فبراير ١٨٩٧ قام برحلة الى مركزهم في واحة سيوه بصحبة ثلاثة من البدو ، وخادم ، وأحد أبناء قبيلة أولاد علي ، وستة جمال ، وفرس . ومع أنه كان معتل الصحة وقتها ، فقد أقبل على الرحلة بحماس ونشاط عجيبين ، برغم طولها ومشقتها . ولكن قافلته هذه سرعان ما ضلت الطريق بعد خروجها من الفيوم ، حتى أخذ يدعو ـ كما يقول ـ « جميع الدعوات التي عرفتها لشيوخي المسلمين

والمسيحيين » وبعد خداع طويل من الطريق والسراب وقعت الواقعة ، وانتهى به الأمر الى كمين من ٢٠٠ شخص تعرض خلاله للضرب والابتزاز والاهانة ، وسرق ماله وسلاحه ، على أيدي هؤلاء البدو من أتباع السنوسية ، أو أشباه أتباعهم ، لأنه لم يتحقق من ذلك . ولكن ما رواه يؤكد أنهم ظنوه جاسوسا للسلطان ، وكان الأخير يحارب السنوسية . ولولا أن أنقذه معاون سيوه لمات في أيديهم . ثم عاد إلى داره محطما مريضا بعد ٤٠ يوما . وتركت هذه الحادثة أثرا في روحه وبدنه لم تمحه السنون بعد ذلك ، ولكنها لم تفقده عطفه على أصدقائه المسلمين ، ولا تقربه طوال وجوده في مصر من المشايخ والأولياء على طريقة حاشية بيته وخدمه . وقد غادر بلنت مصر محملا بآلام هذا الحادث ، ولم يعد إلاَّ بعد ما يقرب من سنتين)

٥ ديسمبر ١٨٩٩

وصلت الى الشيخ عبيد بعد غياب يقرب من سنتين ... وقد استقبلتني آن فى القاهرة ، واتجهنا الى البيت في الحال ، وأسعدنا الحظ بأن نستقل عربة قطار وجدنا فيها الشيخ محمد عبده . ومن دون جميع الشرقيين ، وربما أقول من دون جميع الرجال ، فإن محمد عبده ، أعز أصدقائي ، بعد أن سجن بسبب آرائه الحرة ، ونفته العودة الخديوية الانجليزية سنة ١٨٨٢ ، قد أصبح بالتدريج معروفا بما هو أهله ، فهو أقدر وأشرف رجل في مصر ـ وقد عينوه مفتيا للديار ، وهي أعلى سلطة دينية في المملكة الشريرة . لقد أعطيته فدانا من الأرض منذ سنتين بنى لنفسه عليه دارا ريفية ، وأصبح بذلك أقرب جار لنا ، وحين ودَّع كلانا الآخر عند آخر مغادرة لى لم أكن أظن كثيرا أننا سنلتقي مرة أخرى .

اول يناير ١٩٠٠

... جاء مفتينا محمد عبده خلال فترة العصر .وقرأت عليه خطاب هربرت سبنسر (الفيلسوف الانجليزي وعالم التربية المعروف) الذي شاقه كثيرا ، ثم شرحت له قصيدتي (كانت بعنوان « تخليص الشيطان ») وهو يعد سبنسر على رأس الفلاسفة الأحياء ، وقد ترجم له إلى العربية كتابه عن التربية . كما شرحت لشقيقه حمودة آرائي حول

حقوق الحيوان . وكان الموضوع جديدا عليه تماما . فقال بعد تأمل فيه إنه يتفق كل الاتفاق مع ما جاء به القرآن الكريم وتعاليم الاسلام من احترام للحيوان ، بل للجماد . ولذلك فمن غير المسموح به أن يتعمد أحد تشويه حتى الحجارة . والحق أن المسيحية هي المسئولة بالفعل عن الموقف الوحشي الذي يتخذه الانسان الحديث تجاه الحيوان . ولا يوجد دين آخر يستحق أن يسمى بالدين من شأنه أن يتسامح مع هذا الموقف ، ولكن أطباءنا المسيحيين أقروا المبدأ الأخرق الذي يقول إن الحيوان والطير ما خلقا إلّا لاستعمال الانسان ومتعته ، وانه ليس مكلفا بأي واجب نحوهما ... ورأيي الشخصي هو أن الطيور والحيوانات المفترسة التي لا تؤذي الانسان لها الحق في أن تعيش في سلام . ولكن الطيور والحيوانات التي نعمل على تربيها بإضفاء حمايتنا عليها لابد أن تدفع جزية معينة ، تماما كما في حالة حيواناتنا الأليفة ، بالرغم من أن القانون الأسمى يقضي بترك الجميع في سلام . وقد تناقشنا في الليل ، على العشاء ، حول هذه الأمور .

١٠ يناير

كان محمد عبده في زيارتنا اليوم . وهو يؤكد كل التأكيد ما روي عن كتشنر من حكايات حول معاملته لرأس المهدي كما كتبتها في الصيف الماضي بصحيفة « الديلي نيوز » ، ولا سيما ما يتعلق برفض كرومر لها وكراهيته لكتشنر . وقد اتفقنا في النهاية على أن العناية الإلهية قد غضبت على هذه الأهوال المقرفة ، وأن إمبراطورية انجلترا سيكون مصيرها مصير كل ما سبقها من امبراطوريات .

٢٨ يناير (الأحد)

جرى بيني وبين محمد عبده حديث طويل حول موضوع البشر ومعاملة القوي للضعيف . وقد وجدته متشائما مثلي . فقد طالع التوراة مؤخرا ، ووجد أن فظائع المسيحية ترجع على نحو واسع الى صلتها باليهودية . أما بالنسبة لمعاملة الحيوانات العجماوات فقد روى لي عددا من الأحاديث النبوية التي تحض على الرأفة . ولا شك أن القضاء المتعمد على هذه الحيوانات مخالف لعواطف المسلمين . والقضاء المتعمد

أيضا غريب على المسيحية . وعبده لا يعتقد أن مستقبل البشرية زاهر . وأخشى أن يكون إيمانه بالاسلام ضعيفا ، بالرغم من أنه مفتي الديار ، مثل ضعف إيماني بالكنيسة الكاثوليكية .

٢٩ يناير

... دارت بيني وبين محمد عبده أحاديث عدة أخرى ، ويقول إن عدداً كبيرا من كبار الموظفين الانجليز هنا يجمعون المال بطرق غير مشروعة . وهو لا يؤيد فكرة تدويل مصر ، ويتفق معي في ذلك ، لأن التدويل لا يعني أكثر من إحلال عصبة من الذئاب محل ذئب واحد . وهو يشعر بالمرارة إزاء كرومر ، الذي يميل إليه برغم ذلك ، لأنه لم يؤسس شيئا يعول عليه من الحكم الأهلي حين ينتهي الاحتلال - أي شيئا يمكن التعويل عليه في العمل على الأسس الحرة والشريفة . فقد أشاع حالة عزل عامة للعنصر الوطني والمستنير في البلاد ، والذين رقاهم في المناصب هم أولئك الذين كان لديهم أدنى حد من الاحترام لأنفسهم ، وكانوا بالتأكيد ممن يسهل التأثير عليهم .

١٥ فبراير

... كان محمد عبده في زيارتي في فترة ما بعد الظهر . وروى لي القصة الحقيقية للأزمة العسكرية في الخرطوم . فقد كان كتشنر مكروها منذ فترة طويلة من جانب الضباط المصريين ، الذين عاملهم طول الوقت معاملة سيئة ، وسمح للضباط الانجليز بالتعجرف عليهم وإهمال شكاواهم . وكان يجبر القوات المصرية على القيام بالأعمال الشاقة ، دون أي شكر أو ثناء ، في حين شمل القوات السودانية بالعطف والتدليل . فلما ساءت الأحوال في رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) انزعج كتشنر وحاول منع أي أخبار عن الهزائم الانجليزية من الوصول الى السودان ، ولكنه لم يستطع إيقاف تسربها . ثم خشي أن تحدث حركة عصيان فأمر بنزع الذخيرة بحجة أنها قديمة ولابد من تجديدها ، ولكن الكتائب السودانية رفضت تسليم الذخيرة القديمة حتى تتسلم الجديدة . وعند ذاك ارتاب في الضباط المصريين ، وعزا اليهم تشجيع الرفض ، واعتقل بعضهم . وفي خضم هذا كله استدعى كتشنر للذهاب

الى جنوب افريقيا ، وعُهدَ إلى وينجت باصلاح الوضع ، وكان محبوبا أكثر من كتشنر ، بالرغمَ من أن الموضوع لم تتم تسويته بعد .

ويقول لي عبده إن الفكرة الآن هي دعوة القوات التركية للحلول محل حاميتنا الانجليزية في حالة إثارة الدول الأوربية للمسألة المصرية . وهذا أقل ضررا من قدوم قوات فرنسية أو ايطالية ، مما سيكون معناه تدويل مصر . ومحمد عبده يعرف أن الموضوع نوقش بين الوزراء ، ومع اللورد كرومر . وأنا أميل الى الأمل في أن ينتهي الموضوع حقيقة على هذا النحو ، لأنه يبدو أنه لا توجد فرصة أمام أي جلاء في مصلحة حكومة أهلية مصرية . وعبده له رأي حسن في كرومر كشخص . ولكنه يقول إن هناك عددا من الأمور المريبة التي قام بها مرؤوسوه .

٩ نوفمبر

زارني محمد عبده اليوم . وكان قد قابل الخديو ، الذي عاد من انجلترا في غاية السرور من المعاملة المهذبة التي أحاطته بها الملكة (فيكتوريا) ، وأمير ويلز ، والحكومة ، ولكن حدث ما سبق أن تنبأت به له . فلم يجر أي حديث حول أمور مصر السياسية ، بالرغم من الحديث الذي جرى حول الأمور السياسية في القسطنطينية . وقد أرسل (الخديو) شكره لي مع عبده ، وقال إنه كان ينوي الذهاب الى كرابيت (بيت بلنت الريفي) بناء على دعوتي ، لولا أن اعتلال صحته عاقه عن ذلك . وقد أثنى عليه محمد عبده لمقدرته على الظهور بالمظهر اللائق حين يريد ، كما فعل في انجلترا ، ولكنه ذكر أنه (الخديو) التزم جانب الحذر الشديد بعد ذلك . فقد روى كل ما حدث له هناك لمحرر « المقطم » الذي بادر بنشره .

(عند هذا الحد ينتهي ذكر محمد عبده في الجزء الأول من يوميات صديقه بلنت . كما ينتهي الجزء نفسه بعد قليل بانتهاء القرن التاسع عشر. ومن الواضح فيما مرَّ بنا من يوميات أن العلاقة بين الصديقين قد توطدت كثيرا خلال تلك الفترة ، بعد عودة عبده من منفاه ، وأن علاقة عبده بالخديو وكرومر ، وغيرهما من أولي الأمر ، قد توطدت بدورها ، وأهلته لتولي منصب الافتاء الذي شغله حتى وفاته . وكان بلنت خلال تلك

الفتـرة دائم الرجـوع الى صديقـه في كل ما يتعلق بتسجيل الأحداث وتطوراتها . وقد شهدت أشهر الصيف من ذلك العام الأول في هذا القرن بعض الأحداث التي لم يشهدها بلنت بسبب تغيبه في لندن ، ومنها ما سماه هو بقضية صيد الثعالب . وملخصها أن بعض الضباط الانجليز قاموا بمطاردة الثعالب واصطيادها في المنطقة المحيطة ببيته في عين شمس فتعـرض لهم خفـراؤه الخصوصيون واشتبكوا معهم . وكانت النتيجة اعتقال هؤلاء الخفراء . ولما علم بلنت بالحادث احتج عليه لدى حكومة بلاده ، فنصحته بترك الأمر للقانون . ومن أحداث ذلك الصيف أيضا سفر صديقه عبده الى سويسرا لعقد قران احدى الأميرات المصريات . ولكن أهم ما حدث في الحقيقة كان عودة عرابي وزملائه من المنفى بعد ما يقـرب من ٢٠ عامـا. وكـان من الطبيعي أن تشغل هذه الأحداث الصديقين عند لقائهما في القاهرة بعد عودة بلنت .

لقد بدأ القرن العشرون وقد تجاوز الصديقان سن الستين ، وهَدَّم الدهر كثيرا من آمالهما ، ولكن بقى لهما ذلك الحنين المشترك الى الماضي والذكريات الكثيرة الحافلة)

٢٤ اكتوبر ١٩٠١

قضيت اليوم في « الشيخ عبيد » . وجاءني محمد عبده فأمضينا معا فترة الصباح . يقول لي إنه أثار على نفسه غضب الخديو ، بسبب قيامه بعقـد قران إحـدى أمـيرات الاسرة الخديوية في سويسرا ، خلال هذا الصيف . وكان الخديو قد أذن بهذا الزواج ، ولكنه اعتزم التنصل منه . ثم ناقشنا قضية صيد الثعالب . وهو يؤكد لي أنها لا تتضمن مجرد خرق القانون وحسب ، وانما تتضمن أيضا العدوان على الشرعية من جانب السلطات الانجليزية . ثم تحدثنا عن عودة عرابي . ولكن محمد عبده يلومه على اتصاله بالصحف ، والتصريح لها بأن كل ما قام به الانجليز في مصر خير ، دون أن ينتظر حتى يتأكد من الوضع الحقيقي للأمور . وقد أوقعه ذلك في مشكلة مع المسئولين المصريين الذين قابلوا تصريحه بالتجـاهـل ، بالرغم من أن عامـة الناس مازالت متعلقة به . فالأولاد يتبعونه في الشوارع صائحين : « الله ينصرك يا عرابي » . ويحين يذهب الى المسجد للصلاة يأتي اليه الفقراء ، ويقبلون يديه . وعبده غير راض

عن هذا ، ولم يذهب لزيارته ، ولكني أعتقد أنني حثثته على الاستفادة من شعبيـة الرجل . ووعدني بمقابلته عند مجيئه الى بيتي . وأنا ممن يؤيـدون الرأي القائل بإمكان الاستفادة من عرابي على نحو مثمر في قضية حرية مصر ، وإن كانت شعبيته عند العامة تثير دائما الغيرة في نفوس الأغنياء .

٢٦ اكتوبر

جاء عرابي اليوم على الغداء بصحبة علي فهمي وصديقهما الطبيب . ومازال عرابي متمتعا بصحته وعافيته ، تبدو لحيته البيضاء لائقة عليه تمـاما . وقد وجدته بسيطا ، ودودا ، شديد الشكر لجميلي . ويبدو أن برقيـة تهنئتي التي تسلمهـا في ٢٣ مايـو كانت أول خبـر يتلقاه (في سيلان) عن إطلاق سراحه ، والعفو عنه ، اللذين لم يبلغا اليه رسميا قبل السادس والعشرين . وقد تبادلت معه حديثا طويلا حول الموقف الذي يجب عليه اتخاذه إزاء الشئون السياسية ، وسرني أني وجدته يحمل آراء محددة . ولكني أعتقد أنه واثق أكثر من اللازم في النوايا الانجليزية الحسنة ، بعد أن لم يلق في منفاه سوى المعاملة الكريمة . وله الحق في أن يكون شاكراً للجميل . وفيما عدا ذلك فرأيه لا يختلف كثيرا عن رأيي أو رأي عبـده . وقـد نصحتـه بأن يقنـع بمـا صرح به على الملأ (في الصحف) وأن يقـابل الخديو اذا وافق الأخير على استقباله ، وكذلك اللورد كرومر . انه يتمتع بقسط كبير من العزة والصراحة والصدق بحيث يفيـده حضوره الشخصي كثيرا . ثم جاء محمد عبده فتعانقا ، وراحا يتحـدثان ، حتى أزف موعد الغداء ، بل استمرا يتحدثان على الطعام وبعـده ، لمدة ساعـة أو أكثـر ، وهمـا يتـذكـران التجـارب الماضية ، ويتناقشان حول رجال العصر . وكان اللقاء ناجحا للغاية ، أثر في كل منا من نواح عدة في الحقيقة .

(غادر بلنت مصر بعد ذلك في ٣٠ ديسمبر ثم عاد مرة أخرى بعد نحو عام ، وعاد ذكر محمد عبده)

٤ ديسمبر ١٩٠٢

وصلنا الى الاسكندرية عند الفجر ... ووصلنا الى البيت قبل مغيب

الشمس بساعة كاملة ، ووجدنا في انتظارنا على محطة القاهرة حمودة عبده (شقيق محمد عبده) الذي نال رتبة البكويه وقتذاك . أما أخوه المفتي فقد سافر الى أسوان ، قبيل وصولنا ، لحضور افتتاح خزان النيل الكبير .

١٩ ديسمبر

جاء مفتي الديار وجلسنا نتحدث هذا الصباح لمدة ساعتين . وكان قد أرسل لي كتاب « فتح العرب لمصر » من تأليف بتلر الذي تلقاه هدية . ورحت أشرح له محتويات الكتاب ، لأنه لا يقرأ الانجليزية . ومن رأيه أن نظرية بتلر عن المقوقس وانطباقه على سايروس الملخي بطريرك الاسكندرية عاطلة من الصحة . ويقول إن المؤكد أن المقوقس كان قبطيا ، وحاكما على مدينة ممفيس ، وإنه وسواد القبط أيدوا الفتح العربي الذي خلصهم من طغيان الرومان . واذا لم يكن هذا صحيحا فكيف استطاع الأقباط الحصول على تلك الشروط المجزية من عمرو (بن العاص) والتمتع بالحرية والحكم الذاتي اللذين تمتعوا بهما طوال قرون بعد ذلك ؟ ولم يتعرض الأقباط للاضطهاد الا مع الحروب الصليبية ، ولا سيما حملة القديس لويس (الملك لويس التاسع الفرنسي) على مصر ، حين أعلنوا تأييدهم للغزاة . ثم تحدثنا أيضا عن الشئون المعاصرة في القسطنطينية . والخديو الآن على خصام مع السلطان ، بعد أن استقبله الأخير هذا الصيف استقبالا فاترا . فقد رفض عبد الحميد أن يستقبله على الاطلاق ما لم يَعِدْ بعدم ذكر مسألة (جزيرة) ثاسوس . وهذه هي مسألة ثاسوس : لقد أساء الخديو تصريف الأمور في هذه الجزيرة التي يملكها ، بالرغم من أنها ليست قطعة من مصر . وبلغ من سوء تصريفه أنه فرض على أهل الجزيرة الضرائب والرسوم الجمركية على الاستيراد ، حتى شكوه الى السلطان ، الذي اتخذ الشكوى ذريعة لإرسال قواته إلى هناك في صورة حامية . وكان الخديو يطالب بجلاء الحامية ، ولكنه لم يتمكن من عرض دعواه في القصر ...

وعباس واقع الآن تحت تأثير سيدة مجرية أصبحت عشيقته . وكانت بصحبته عند وقوع حادثة سيارته منذ أسابيع . فقد ضل طريقه وهو عائد ليلا من الدار البيضاء وغاصت عجلات السيارة في الرمال . ورفض

الخفراء مساعدته ، فحكم عليهم بالاشغال الشاقة لمدة اسبوع ، ووصل الخبر الى الوكالة البريطانية (المعتمد البريطاني) حيث تسبب في نزاع نشب هناك ضده . كما تحدثنا عن مدحت باشا (والى سوريا السابق وأحد زعماء تركيا الذين سجنهم السلطان) ووفاة السلطان عبد العزيز . ويؤكد عبده الرواية التي ذكرها لي الدكتور ديكسون (طبيب السلطان) عام ١٨٨٤ ، ومؤداها أن الوفاة كانت انتحارا مؤكدا ، ولم تكن طبيعية .

ويروي لي أيضا كيف تم تجويع مدحت حتى الموت في سجنه بمدينة الطائف . فقد قدموا له خبزا جافا ، بلغ من جفافه أن الرجل العجوز كسر أسنانه وهو يحاول تناوله ، ولم يسمحوا له بأي راحة من أي نوع ، لقضاء حاجته ، في زنزانته ، حتى أسلم الروح من سوء المعاملة ، ثم جَزُّوا رأسه وارسلوه الى القسطنطينية . أما عبد الحميد فقد قال عنه عبده إنه أكبر « مجرم » على قيد الحياة ، وهذه كلمة شديدة ، ليس من اللائق أن يستخدمها مفت للديار في وصف خليفته .

٢٢ ديسمبر

(روى بلنت أن صحيفة عربية في القاهرة نشرت قصة مُخْتَلَقَة عنه ، وكيف أنه أيرلندي المولد يكره انجلترا بالوراثة ، لم يكن على ثراء ، ولكنه تزوج ابنة لورد انجليزي كبير ، بشرط أن ينتقم لأبيها ، الذي اغتيل وهو يتنقل في أنحاء الدولة العلية ، وترك أربعة ملايين جنيه ، ففرضت ابنته ذلك الشرط على خُطَّابها ، حتى تقدم لها بلنت فوافقت عليه . ومنذ ذلك اليوم تزوجا وكرس هو حياته من أجل القضاء على الامبراطورية العثمانية ، عن طريق اثارة العرب لاعلان الخلافة العربية ، وإعادتها من الترك الى العرب . وهذه كلها قصة لا أساس لها . ويبدو أن حاسديه قد وضعوها لضرب نفوذه عند الوطنيين)

٥ - الخديو يكيد له واللورد يرضى عنه

لم تكتف الصحيفة - التي لم يذكر بلنت اسمها - بهذه القصة المختلقة عن حياته ، وانما زادت عليها أنه تسبب في حالة الفتور القائمة وقتها بين السلطان والخديو عن طريق الدسائس ، وأنه تسبب ايضا في الحرب الدائرة وقتذاك بين ابن راشد (النجدي) ومبارك شيخ الكويت . وذكرت الصحيفة أن بلنت زود الأخير بالسلاح والعتاد . ويبدو أن القصة كلها من تدبير السلطات الانجليزية التي كان يهمها الإيقاع بين الوطنيين وبلنت . ومع ذلك لم يشر بلنت الى أنه سيقوم بتكذيب القصة ، ولكنه أشار الى أنه تحدث عنها مع صديقه الوفي محمد عبده :

« ناقشت الموضوع مع محمد عبده الذي اقترح علي أن أجعل هذه القصة فرصة لنشر القصة الكاملة - بالعربية - لاتصالي بشئون مصر سنتي ١٨٨١ - ٨٢ »

(ومن هذا الاقتراح - كما يقول بلنت بين قوسين - نما العمل الذي شغله طوال شتاء ذلك العام (١٩٠٢) بالاشتراك مع المفتي ، ونشر في طبعته الاولى بعد خمس سنوات تحت عنوان « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر »)

اول يناير ١٩٠٣

احتفلنا بالسنة الجديدة ، التي وافق مطلعها اليوم الثاني من شهر شعبان ، بتناول الغداء مع المفتي ، وتحدثنا عن أيام الماضي السياسية سنة ١٨٨٢ .

(في ٢٢ ينـاير روى بلنت أن (ادوارد) براون الأستاذ بجامعة كيمبريدج ، والمستشرق المعروف زاره في بيته ، ومعه رسالة توصية من الفرد ليال ، صديق بلنت وأحد كبار المسئولين الانجليز في الهند . وقد أبدى بلنت إعجابه ببراون ، ووصفه بالذكاء كمستشرق يجيد الفارسية والتركية والعربية . وقال انه يتردد على محاضرات محمد عبده عن القرآن في الأزهر . وفي ٣٠ يناير كتب بلنت أن محمود سامي البارودي زاره بصحبة محمد عبده . ولم يكن قد رآه منذ زيارته للمنفيين في سيلان قبل ١٩ سنة . وكان قد كف بصره تقريبا ، لا يتكشف طريقه بغير أن يقوده

أحد من يده . وفي ٨ فبراير كتب إن حمودة عبده روى له أنه دعي مؤخرا الى حفل راقص عند الخديو فرأى هناك نساء عاريات ، ولما سأل عن حقيقتهن قيل له إنهن زوجات المسئولين الانجليز ، ومن هؤلاء قاضي محكمة الاستئناف ، الذي ترافع أمامه حمودة كثيرا . وقد رأى القاضي نفسه والخديو أيضا يراقصان النساء ، فشعر بالخجل ، واضطر إلى الانصراف ، بعد أن شاهد الخديو يشرب الخمر التي كانت تدار على الحاضرين . وقال ان الخديو أذن لحريمه بالتفرج على ما يدور من وراء الستائر . وعلق بلنت على هذا كله بقوله : « يا صديقي العزيز . لعلك لا تدري أن هذه طريقتنا في تحضير الشرق . انتظر عشرين سنة أخرى تر كل قضاة مصر ، ومنهم أخوك المفتي ، يراقصون النساء العاريات أكثر من ذلك . ومن يدري . ربما يذهبون الى هذه الحفلات ورؤوسهم عارية »)

١٦ يناير ١٩٠٣

أمضى محمد عبده ساعة معنا ، روى لنا خلالها تاريخ سنة ١٨٨٢ ... وبعدها سألته عن السبب الحقيقي لمذبحة ١١ يونيو في الاسكندرية ، فقال إن السبب هو ـ بلا شك ـ الخديو وعمر لطفي (محافظ المدينة)

ولما سألته عن الكيفية التي عرف بها هذا السبب أجاب :

« في اليوم التالي للمذبحة سافرت الى الاسكندرية ، حيث أتيح لي الاطلاع على البرقية التي بعث بها الخديو الى عمر لطفي . وكان نصها : « عرابي تعهد بالأمان للأوربيين ، ولك ان تختار بين خدمتي وخدمته »

لقد كان عبده مهيأ لمثل هذه المعرفة . فقبل أسبوعين من وقوع المذبحة نشرت صحيفة تدعى « المحروسة » ، كان يحررها أحد الشوام المسيحيين ، مقالة تضمنت اشارة إلى أن اليونانيين في الاسكندرية يتسلحون بالأسلحة . وحذرت المقالة المسلمين ألا يفكروا في قتل المسيحيين والا تعرضوا للقتل أيضا على أيدي هؤلاء . وبسبب ذلك اضطر عبده ، بصفته رئيسا لقلم المطبوعات ، إلى إيقاف « المحروسة » بدعوى أنها تشكل خطراً على الأمن العام .

وقد تم تدبير حوادث الشغب على النحو التالي :

قام الخديو باستدعاء أمبرويزي سينادينو الذي كان على علاقة حميمة به . وكلفه بتقديم المال من أجل تسليح اليونانيين في الاسكندرية . وقام عمر لطفي من جانبه باصدار التعليمات لحكمدار الشرطة الذي تولى تحريض المشاغبين ، والمشاركة برجاله في حوادث القتل . أما الجيش النظامي فلم يتم استدعاؤه للتدخل الا بعد استفحال سفك الدماء . وقد تم الاستدعاء شفويا في البداية ، فلما استفحل الأمر ، وساء الموقف ، صدرت التعليمات بالتدخل كتابيا في النهاية .

ولا يوجد أدنى شك في أن حوادث الشغب كانت مدبرة . وقد سألت عبده عما إذا كان يظن أن الانجليز علموا بها قبل وقوعها ، فقال ان احدا منهم لم يعلم بذلك ، حتى ماليت (القنصل) نفسه . وقد كان الأخير (في رأيه) رجلا شهما ، حاول بكل ما في وسعه أن يهدىء الأمور ، وأن يحفظ النظام القائم . ولكن من المؤكد أن القنصل الانجليزي قد عرف الحقيقة في اليوم التالي ، فور العثور على جثث المسيحيين الذين تخفوا في ثياب المسلمين . ولم تظهر آثار طعنات حراب بنادق الشرطة إلا على بعض الجثث . وهذا هو السبب في إيقاف التحقيق ، وعدم المضي فيه . ومع ذلك كان عمر لطفي المدبر الرئيسي للحوادث .

لقد حذر عبده عرابي ، ونصحه بالتخلص من عمر لطفي قبل فترة طويلة ، بدعوى أنه شخص لا يمكن الوثوق به ، وانه قد يقوم بعمل شائن في الاسكندرية ، ولكن عرابي لم يسمع للنصيحة . فقد كان ساذجا جدا وعنيدا جدا ، يصدق كل من يصفه بأنه عظيم ويثق به . وقد اعترض عبده ذات مرة على موقفه من الخديو ، وقال له ان عليه إما المحافظة على الود معه (مع الخديو) ووضعه دائما تحت تأثيره وإما أن يقطع رأسه . ولكن عرابي لم يفعل هذه ولا تلك . بل فقد صوابه تماما في الاسكندرية . وحين سافر عبده الى هناك أثناء القصف وجد كل شيء في حالة فوضى وحشية . ووجد عرابي عاجزا عن توجيه ، أو إقرار ، ما يجب عمله . كما وجد جميع الجنود والمدنيين ، سواء بسواء ، في حالة فزع أفقدتهم صوابهم . وقد كان من الواجب وقتها أن يقبض على الخديو ، وأن يرسله الى القاهرة أسيرا ، ولكنه ـ بدلا من ذلك ـ سمح له بالفرار إلى الاسطول الانجليزي .

وقد سألت عبده عما إذا كان يعتقد أن الشراكسة الذين اعتقلهم عرابي قد عذبوا في السجن ، فأجاب : « كلا . ولكنهم تعرضوا للمعاملة الخشنة »

(هذه اليومية ـ ١٦ يناير ـ أوردها بلنت في ملاحق الطبعة الثانية من كتابه « التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر » ، ولم ترد في سياق يومياته العادية . وقد علق هو نفسه على إيرادها بهذه الصورة ، فقال إنه راجع موضوعها في ٩ مارس ١٩٠٥ مع محمد عبده ، وحقق الموضوع معه مرة أخرى حتى استوفاه منه . ثم أضاف أن إصرار عبده على اتهام الخديو وعمر لطفي بتدبير الشغب في الاسكندرية قبل قصفها، هو الذي دفعه ـ أي بلنت ـ الى الاقتناع برواية عبده الذي عده مسئولا عن كل كلمة سجلها هو حول الموضوع .

ومن الملاحظ على هذه اليومية ، عدا تورط الخديو ولطفي ، أن بلنت يفرق دائما بين المسيحيين والأقباط . فالمسيحيون عنده هم الأوربيون أو رعايا الدول الأوربية ، والشوام المسيحيون من رعايا الدولة العثمانية . أما الأقباط فكانوا وقتها متحدين مع المسلمين في مصر لدرجة أن بلنت كان يكتفي بذكرهم ضمن المسلمين . وكان يعني بالمسلمين المصريين من غير الأتراك أو الشراكسة .

ومن الملاحظ أيضا أن كل ما ورد في هذه اليومية من تعبير عما حدث في مذبحة الاسكندرية يرجع ـ أولا وأخيرا ـ الى محمد عبده ، بما في ذلك أحكامه وآراؤه حول عرابي .

أما جريدة « المحروسة » التي ورد ذكرها هنا فقد أصدرها عام ١٨٨٠ عزيز زند وسليم النقاش . وكانت سياسة تجارية .

وبعد هذه اليومية نستطيع أن نمضي مع السياق المتصل الذي قطعناه ، وأن نصل تسلسل اليوميات بعد ذلك حتى آخر عام ١٩٠٣)

٢٥ فبراير

نزلت الى القاهرة لأول مرة هذا الشتاء لمقابلة الخديو ... (وبعد أن حدثه الخديو حول عدد من الأمور :) استطرد فشكا من جحود محمد عبده لاستمراره في مصادقة رجل يدعى رشيد (المقصود محمد رشيد رضا تلميذ عبده ومحرر مجلة « المنار » الذي هاجم الخديو في احدى مقالاته) كان قد أخطأ في حقه . وقد دافعت عن المفتي حول هذه النقطة ، وهدأت من غضب الخديو .

٢٦ فبراير

تغديت عند المفتي ، حيث وجدت هناك الأستاذ براون أيضا . ومن المدهش أن براون يتحدث الآن العربية بطلاقة مع أنه لم يعرفها إلّا كباحث ، دون أن يتحدث بها من قبل حين جاء الى هنا منذ شهرين . وكان يحضر دروس المفتي في الأزهر ، ويقول لي إنها دروس مثيرة للاعجاب ، وجريئة جدا ، وإنه (المفتي) حاضر البديهة في الرد على الاعتراضات التي يوجهها اليه المفسرون التقليديون للقرآن . ثم تحدثت الى المفتي حول شكوى الخديو منه . وسوف يكتب إلى سموه ويشرح له الخطأ . فالصلح بينهما في غاية الضرورة بالنسبة للمصالح العامة . وهما قادران بالتعاون فيما بينهما على إحداث تأثير كبير ، والخلاف بينهما يُحيِّد كلاً منهما ، ويفقده نفوذه .

٦ مارس

حضر محمد عبده ، ومعه الشيخ رشيد ، الذي تسبب في غضب الخديو . ويبدو رجلا محترما . وكان بصحبتهما حافظ ابراهيم ، وهو شاعر فلاح ، تناقشنا معه حول المعلقات . وقد اتفق الثلاثة على أن أفضل الشعر العربي ليس شعر الجاهلية ، وانما شعر القرن الثاني للهجرة . وهذا مخالف تماما لأفكارنا الانجليزية ، ولكن مقياس الجودة عند الآذان العربية مختلف عن مقياس الجودة عندنا . فما يعجب المثقفين هنا في الشعر هو الوزن ، وليس معنى الشعر . وهم لا يهتمون كثيرا بمظاهر السذاجة والبساطة عند شعراء ما قبل الاسلام ، ويعدونها من قبيل العيوب ليس غير ، ولا يستطيعون إدراك أية قيمة على الاطلاق

في ملحمة أبي زيد (الهلالي) . وقد أدركت أن هؤلاء الرجال الثلاثة لم يرضوا عني بسبب إعجابي بها .

(عاد بلنت الى انجلترا بعد ذلك ووصل الى لندن في ٦ ابريل ، أي بعد شهر على التحديد من آخر لقاء له مع محمد عبده في مصر . وقد حدث أن سافر عبده في صيف ذلك العام الى انجلترا . ففي ٥ اغسطس ١٩٠٣ وصل محمد عبده إلى لندن في ثاني زيارة له ، بقصد مقابلة الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر . وكتب بلنت :)

٦ أغسطس

نيوبيلدنجز (بيت بلنت الريفي الآخر) وصل محمد عبده أمس من مصر مع شقيقه حمودة ، وأوصلتهما اليوم الى كرابيت (بيته الريفي الآخر حيث يحتفظ بخيوله) ومنه إلى نيوبيلدنجز ... وجلس محمد عبده معي في مقصورة العربة التي جرتها خيولي العربية الأربعة ، ودار بيننا حديث طويل حول الشئون المصرية .

٩ اغسطس

الأحد . أمضيت وقتا لطيفا مع المفتي خلال الأيام القليلة الماضية . وجرى بيننا اليوم ونحن نتمشى في غابة نيوبيلدنجز حديث طويل عن الدين . سألته بوجه خاص عن عقيدته في الملائكة والأرواح . ومع أنه لا ينكر وجودها ، فقد قال : « لم يحدث أن رآها أحد ، وليس من الممكن معرفة أي شيء عنها . أما الله ، فمن المستحيل أيضا أن يعرف عنه أحد شيئا . وسألته عن الحياة الآخرة ، فقال إنه يؤمن بها ، وإنها تضم دارين : دار للسعادة وأخرى للشقاء . ولكنه لا يعرف على أي نحو سيكون ذلك . وهو لا يؤمن بالعقاب الأبدي . ثم تحدثنا أيضا عن حوادث ١٨٨٢ . وتصفح الأوراق التي تتصل بمحاكمة عرابي ، وحثني بشدة على نشر تاريخ لتلك الفترة . ومع ذلك فالصعوبة التي تواجهني هي أن أهم مستنداتي وخطاباتي كتبها أشخاص مازالوا على قيد الحياة . وقد يعترضون على نشرها ، في حين أن بدونها سيكون من المستحيل تعرية دسائسنا الإنجليزية بطريقة لا يمكن دَحْضُها . ولا يوجد في هذه الرسائل

شيء شخصي ، فكلها مستندات تاريخية صرفة ، ولابد أن ترى النور يوما ما ، ويجب أن يكون ذلك اليوم قريبا . ثم ناقشنا في النهاية الحالة الحاضرة للعدالة في مصر ، التي طلب مني محرر صحيفة « المانشستر جارديان » أن أطلعه على معلومات عنها ، وأعتقد أنني سأقدر الآن على تلبية طلبه بمساعدة المفتي .

١٠ اغسطس

ذهبت مع عبده الى (مدينة) برايتون (المطلة على القنال الانجليزي جنوب لندن والواقعة في مقاطعة سسكس التي يعيش بها بلنت) لمقابلة هربرت سنبسر الذي جاء الى انجلترا خصيصا لزيارته ، وهو يعده فيلسوفا عظيما ، ترجم الى العربية كتابه عن التربية [٥٦]. وكان سبنسر قد أرسل عربته ، وسكرتيره المستر تراوتون ، لاستقبالنا على محطة برايتون . ووجدنا الرجل العجوز (٨٣ سنة وقتذاك) في فراشه بغرفة مكتبه الخلفية في برسيفال تيراس (بيته) حيث كان طريح الفراش من شهر ابريل . ولم تؤثر النوبة التي أصابته وقتها في حالته العقلية . فقد وجدناه واضح الأفكار ، قوي الصوت ، ولكنه كان نحيفا للغاية ، يده مجرد هيكل عظمي . استقبلنا لفترة قصيرة قبل الغداء . ثم استأنفنا حديثنا معه في الثالثة (بعد الظهر) وحاول في البداية أن يتحدث بالفرنسية ، ولكن بتعمد شديد ، وبحث عن الألفاظ . وسرعان ما انتقل الحديث الى الانجليزية التي رحت أترجمها لعبده . وقد أخذ سبنسر يشكو من اختفاء « الحق » من ساحة السياسة الحديثة في أوربا ، واستنكر حرب الترنسفال (جنوب افريقيا) ، وعدها اعتداء صارخا على الانسانية . وقال : « سيأتي على العالم عهد من القوة ، وستنشب مرة أخرى حرب عامة من أجل السيادة تستخدم فيها كل ألوان الوحشية » .

وفي زيارة فترة العصر انتقل الحديث الى الفلسفة . وسأل (سبنسر) المفتي : هل صحيح أن الفكر في الشرق يتطور على ذات الأسس التي يتطور عليها الفكر في أوربا ؟ ورد محمد عبده بأن ما تعلمه الشرق من الغرب شره أكثر من خيره ، ولكن ما زال أفضل الفكر وأكثره استنارة

(٥٦) لا ندري شيئا عن هذه الترجمة ، ولا عن مصيرها . ويبدو انها لم تطبع .

واحداً عند الاثنين (الشرق والغرب) . وقال سبنسر : اذا تعمقنا الأمور فإني أزعم أن مفهوم القوة الاساسية في العالم ، أو ما تسمونه الله ، ونسميه الإله ، ليس شديد الاختلاف . وكان رد المفتي على ذلك يحمل تمييزاً عده سبنسر جديدا . فقد قال عبده إن الله موجود لا شخص . وسر سبنسر لهذا ، ولكنه قال ان هذا التمييز مازال صعبا على الإدراك ، ثم أضاف : « من الواضح على أي حال ، أنكم لا أدريون من نوع اللا أدرية في أوربا [٥٧] ولم يكن أمامنا متسع من الوقت للمضي في هذه السلسلة من الأفكار ، لأن سبنسر لم يكن مسموحا له بالكلام في كل مرة أكثر من بضع دقائق . ولكني رحت أستجوب المفتي حول هذه النقطة ونحن في طريقنا بعد ذلك الى المحطة .

قلت : هل تعتقد أن الله له وعي ، وأنه يعرف أني موجود وأنك موجود ؟ أوليست هذه المعرفة دليلا على أنه شخص ؟

قال : نعم . هو يعرف .

قلت : اذا كان يعرف ، فهل يعرف أنك صالح وأني طالح ؟

ووافق عبده على ذلك

قلت : وهل هو يرضى عنك وعني ؟

قال : قد يرضى ، وقد لا يرضى .

قلت : يرضى اليوم لأن أعمالك صالحة ، ولا يرضى غدا لأن أعمالك أصبحت طالحة ؟ أليس هذا التغير ، من الرضا الى عدم الرضا ، أمرا يميز الشخص ؟ كيف إذن لا يكون شخصا ؟

قال : ان الله عليم بكل شيء في كل زمان . ولا يوجد عنده اليوم والغد . ومن ثمة لا يوجد عنده تغير وتبدل . ووعيه بكل شيء أزلي غير متغير . وهذا ما أسميه الموجود ، لا الشخص .

قلت : والمادة ؟ أليست المادة أزلية أيضا ، أم هي من خلق الله ؟ وهل اذا كان خلقها أفلا يعني هذا أنها تتغير ؟

قال : المادة أيضا أزلية ، كما أن الله أزلي .

وهنا يتضح أساس تفكير عبده . وقد اتفقنا على أن أفكارنا واحدة من هذه الناحية ... ثم ذهبنا الى لندن حيث لحق بنا على العشاء في

---

(٥٧) اللا ادرية : مذهب فلسفي اوربي يقوم على معرفة الله عن طريق الحواس ولا يعتد بما يخرج عن نطاقها .

تشابل ستريت (بيت بلنت) الأستاذ براون وكوكرل . ومن المقرر أن يسافر عبده غدا الى (مدينة) أوكسفورد، ويوم الأربعاء الى (مدينة) كيمبريدج . وقد كان الجو بديعا طوال فترة زيارتهما (عبده وأخوه) وإقامتهما في نيوبيلدنجز .

(لقد روى محمد رشيد رضا خبر زيارة أستاذه محمد عبده لسبنسر [٥٨] الذي مات بعد خمسة أشهر ، وذكر أن عبده ترجم لسبنسر كتابه « التربية » أثناء تعلمه الفرنسية لأجل التمرن على الترجمة ، وأنه عرض ما ترجمه على قاسم أمين الذي استحسن الترجمة . [٥٩] وكان قاسم يجيد الفرنسية ، بحكم تعليمه وثقافته .

غير أن الحوار الذي أجراه بلنت مع عبده حول الألوهية يبدو في الحقيقة مقتضبا وغير واضح . ويبدو أيضا أن سبب ذلك يرجع الى أن بلنت كتبه من ذاكرته في الغالب . ومع ذلك لم ير بلنت صديقه بعد مغادرته لندن إلى اوكسفورد وكيمبردج . وانتظر حتى عاد إلى مصر في ١٢ نوفمبر . وجاءه عبده ليلة وصوله إلى القاهرة فاتصل بينهما حبل الحديث عن رحلة عبده الى انجلترا ، وهي رحلة لم تستغرق طويلا على أي حال)

١٢ نوفمبر

في ذلك المساء نفسه جاءنا الشيخ محمد عبده وروى لنا القصة الكاملة لمغامراته بعد أن غادر نيوبيلدنجز . ففي أوكسفورد وجد عددا من المخطوطات العربية التي لا يعرفها أحد في الأزهر إلّا بالإسم . ومن بينها مراسلات بين فيلسوف عربي يدعى EL-Sebain (أو السباين ، والإسم مجهول في الحقيقة على الاقل كما كتبه بلنت) وفردريك الأكبر (ملك بروسيا في القرن الثامن عشر ، وربما يكون المقصود فردريك آخر فهناك ثلاثة ملوك أوربيين بهذا الاسم) وينوي عبده تكليف من ينسخ عددا من هذه المخطوطات بتمويل من إدارة الأوقاف . وقد ذهب من انجلترا الى سويسرا ، ومنها إلى الجزائر وتونس . ورسم صورة محزنة للأحوال في شمال افريقيا الفرنسي ، اذا قورنت بما سماه معاناة أهالي مصر تحت سيطرة الانجليز ، وهي صورة اشبه بمقارنة الظلام بالنور .

---

(٥٨) راجع: تاريخ الاستاذ الامام ١٤٠، ط ١، ص ص ٨٦٦ ـ ٦٩

(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٠٣٤

ففي الجزائر يوجه الحكم كله من أجل مصالح المستعمرين الأوربيين على حساب الأهالي . وهؤلاء محرومون تقريبا من أي حماية شرعية ، ولا يتمتعون بأي حرية على الاطلاق . فلا توجد هناك حرية صحافة ولا حرية رأي ، والتجسس أسوأ مما في القسطنطينية ، والأحوال في الجزائر ليست أفضل من الأحوال في تونس . وقد اقترح عليه البعض في تونس أن يطلب مقابلة الباي ، ولكن قنصل النمسا العام أبلغه أنه لا بد أن يطلب إذْنا أولا من المقيم الفرنسي الذي سيبعث رجلا فرنسيا لحضور المقابلة . وقال له المسلمون في تونس : « إن صحفكم في مصر تشكو من تعاسة حظها في ظل الانجليز ، ولكننا لا نطلب من الله إلا أن يهبنا خمس سنوات من نظامكم على سبيل الراحة من جحيم النظام عندنا » .

ذكر لي المفتي هذه التفصيلات لأنني قرأت في صحيفة « الفيجارو » (الفرنسية) أنه عبر لها عن رضاه التام عن أحوال إخوانه المسلمين في ظل الحكم الفرنسي . ولكن ما رواه لنا يتفق مع كل ما سمعه من جهات أخرى عن تونس ، وما اذكره عن الجزائر في زيارتي لها سنة ١٨٧٣ .

(يستطرد بلنت بعد ذلك مباشرة الى المقارنة بين الاحتلال الانجليزي والاحتلال الفرنسي في تعاملهما مع الأهالي . ويجد أن الا نجليز في مصر لم يحولوا البلاد الى مستعمرة من الناحية العملية ، وأن الادارة الانجليزية في مصر مدنية تقريبا ، تخضع للنقد في صحف انجلترا وبرلمانها ، على العكس تماما مما يحدث في شمال أفريقيا تحت الاحتلال الفرنسي . ثم يعود الى محمد عبده :)

وأخيرا روى لنا المفتي آخر تصرفات الخديو . فهو الآن قد انصرف كليـة إلى جمع المال والمضاربات . واتفق مع كاسل صديق الملك (الانجليزي) على إقراضه نصف مليون جنيه استرليني لاستثمارها بدون فائدة في مشروعات مختلفة ، وهو يخطط لمشروع مبان في الجيزة ، يجري التفاوض على استبدال أرض له مع الأوقاف . بحيث يستفيد الخديو من عملية الاستبدال كلها . ومع ذلك فعبده يعترض ـ بصفته المفتي ـ على هذه العمليات ، ولن يسمح بأي احتيال على المال العام . وقد قابل الخديو مؤخرا ، وتظاهر الأخير أمامه بالود ، ولكن محمد عبده يعرف أنه يدبر الدسائس لخلعه من منصب المفتي . والخديو لن يتسامح

مع أي شخص لا يعمل له حسابا .

٢٣ نوفمبر

أرسلت أمس الطبعة الفرنسية من كتابنا « رحلة الى نجد » (ألفه مع زوجته) الى محمد عبده ، حتى يجد ما يسليه في شهر رمضان ، ثم جاء لي هو نفسه بعدها . ولما تطرق الحديث الى مدحت باشا (والى سوريا السابق) الذي قدمت قصته من قبل ، قال لي إنه لم يعجب به على الاطلاق ، بالرغم من عطفه على قضية الدستور في القسطنطينية التي تولى مدحت بطولتها . وأضاف أنه كان رجلا مندفعا لا يعرف الحذر ، ولا سيما مع كؤوسه ، لأنه اعتاد الشراب ، وكان هذا سر سقوطه . وعندما كان واليا في دمشق حضر ذات يوم مأدبة عشاء بمدينة طرابلس (اللبنانية) ، وألقى خطابا وصف فيه نفسه بأنه محطم ملكين ، مشيرا بذلك الى السلطان عبد العزيز والسلطان مراد . ونقل الخبر الى السلطان فكان سببا في تحقير مدحت . أما من ناحية كونه مصلحا ، فقد كان ضحلا ومتأوربا بأسوأ معنى . ومع ذلك كان سقوطه سوء حظ حقيقيا وكانت نهايته مأساة حقيقية .

وقد قابل محمد عبده الخديو مرة أخرى ، وروى له الأخير القصة الكاملة لتجاهله موعده معنا في كرابيت (بيت بلنت الريفي الآخر) في الصيف . وكان السبب هو نفسه ما توقعته . فحين اقترحت الزيارة في البداية لم يقم أي اعتراض من جانب الانجليز الذين أوكل اليهم رعاية الخديو أثناء اقامته في انجلترا ، ولكن حدث في صباح الأحد ذاته الذي استعد فيه لبدء التحرك نحو كرابيت أن جاءه كاسل ، الذي كان مضيفه باسم الملك في لندن فحدثه عن زيارتي ، وقال انها تسيء إلى الملك ، وستفسر عند البلاط بمعنى أنه لم يرض عن استقبال الملك له . وقال له كاسل بالحرف الواحد : « لست أقول إنه يجب ألا تذهب ، ولكنك اذا فعلت فسوف يفسر ذهابك بهذا المعنى » وقد بعث الخديو بهذا التفسير كرسالة اليَّ عن طريق المفتي ، ولكن بغير غرض النشر . وهو يرجوني أن أذهب لمقابلته كالمعتاد ، ولكني لن أفعل . وقد أبلغت عبده بأن ينقل اليه إنه ما دام الملك قد أمره بألا يراني ، وما دام هو قد أطاع فأنا ، بصفتي من رعايا الملك ، ما زلت أكثر امتثالا للطاعة .

٢ ديسمبر

جاء المفتي اليـوم وروى قصـة ما يدور في الدوائر العليا في مسألة الاصـلاح القضـائي . وقـد قابـل أمس كرومـر الذي طلبـه لمناقشة المشروعات المختلفة . وسأله كرومر عن رأيه في خطة ترشيح القضاة ، فقال المفتي إن قيمة هذه الخطة تتوقف على ما إذا كان القضاة ستعينهم الحكومة أم محكمة الاستئناف . فإذا كانت الأخيرة فسوف يتم اختيار رجـال أكفـاء . واذا كانت الأولى فسـوف تنقلب الحال . ثم استدعى ماكلورث ، فلما حضر تلقى في وجود المفتي محاضرة من كرومر عن ضرورة استشارة أرقى رأي عند الأهالي ، ولا سيما رأي المفتي . وهو (المفتي) راض الآن لأنهم سيتخـذون مشروعـا معقـولا . كما شكا من السلطة الاضافية التي وضعت في أيدي الشرطة بحالتها الفاسدة الراهنة . ويقول ان الخديو غاضب منه جدا بسبب اصراره أن يسدد (الخديو) مبلغ العشرين ألف جنيه كاملا لقاء صفقته مع الأوقاف ، وإنه يبذل كل ما بوسعه لاقصائه عن منصب المفتي ، ومع ذلك فعبده راسخ في مركزه الآن بحيث لا يقيم إهمية كبيرة لما يحوكه الخديو ضده ، ويبدو حقيقة كما لو كان نفـوذه قد أصبـح في النهاية على ما كان يجب أن يكون عليه من البداية ، أي أن يكون أعلى شخص في مصر . وروحه المعنوية مرتفعة جدا . وقد هنأته على قرب تعيينه رئيسا للوزراء . فكرومر يسند المفتي الآن . والخديو في غاية الغباء لأنه يسمح للشرور الحقيقية بالمرور دون اعتراض ، ولا يتدخل إلاّ في التوافه .

١١ ديسمبر

حديث أكثر طرافة مع عبده . ما زال الخديو غاضبا جدا عليه حول مبلغ العشرين ألف جنيه ثم قطعة الارض التابعة للأوقاف ، وهو يحاول الانتقـام من المفتي بإثارة معركة جديدة على أسس دينية تتصل ببنك الادخـار المقتـرح انشـاؤه . وقـد أساءت فكرة هذا البنك (صندوق التـوفـير) للمسلمين التقليديين ، لأنه يسمح للمودعين بالحصول على فائدة على أموالهم ، الأمر الذي تحرمه شريعتهم . أما عبده فقد أصدر ، بصفتـه مفتيـا، فتـوى حول المـوضـوع وأوصى فيهـا بتغيير المرسوم بانشـاء البنـك ، ولكن الخـديو اتخذ ضده خطا دينيا متشددا وأدان

المشروع بأكمله ، مع أنــه يودع أمــواله بغير تدقيق نظير فائدة في كل مكـان، وزلا يخفى ذلك. غير ان كرومر يؤيد عبده. ولهذا فلا خطر فِعْليّ عليه من المكيدة . وفي هذا كله وكثير غيره يتصرف الخديو بطريقة غير معقولة ، فيسمح للشرور الحقيقية بالمرور بغير احتجاج ، ولا يتدخل إلّا في التوافه .

٢٥ ديسمبر

جاء المفتي بعـد الظهر بصحبة (أحمد) المنشاوي باشا ، وهو نفسه الذي لعب دورا مشرفا وقت ضرب الاسكندرية ، فأنقذ حياة كثيرين من المسيحيين في طنطا ، بالقرب من قريته . وقد منحته الحكومة الانجليزية وسـاما بعد الحرب تقديرا لانسانيته ، ولكن كرومر اضطهده منذ ذلك الحين بدعوى أنه من أنصار الخديو . وهو رجل ثري جدا ، تبرع مؤخرا بمبلغ ١٤ ألف جنيه للمفتي لانفاقه على مختلف الأغراض الإسـلامية . ومـا زال المفتي قلقا من ناحية الخديو الذي قام بالضغط على عدد من شيـوخ الأزهر حتى يكتبوا اليه ملتمسا بعزل المفتي على أساس عدم التقى ، تماما مثلما فعل محمد علي مع الشيخ السادات زمن الجبرتي (المؤرخ الذي طالع بلنت كتابه وأنهاه قبل يومين) ويقول لي (عبده) إنه برغم كل ما مر به في حياته فلم يفقد الا صديقين ، وانه جعل مبدأه دائما العفو والمغفرة .

١٧ يناير (الأحد) ١٩٠٤

عاد المفتي من الاسكندرية حيث ذهب لمقابلة الخديو الذي استقبله ـ كعـادتـه ـ بالابتسـامات والنكات ، مع أنه كان يبذل كل ما بوسعه للوصول الى موافقة كرومر على عزله . وقد حمل له الخديو ضغنا جديدا بسبب اصداره فتاوي لبعض المسلمين من الترنسفال (جنوب افريقيا) ردا على ثلاثة أسئلة وجهوها اليه :

١ ـ هل يجوز أن يأكل المسلم في بلد أجنبي (غير مسلم) لحما غير مذبوح على الطريقة الشرعية ؟

٢ ـ هل يجوز أن يرتدي المسلم القبعة في بلد أجنبي ؟

٣ ـ هل يجوز للشافعي أن يصلي خلف الحنفي بدون تسمية ؟ [٦٠]

وعلى هذه الاسئلة الثلاثة جميعا أجاب محمد عبده بالايجاب . ولكن الخديو الذي يأكل اللحم المذبوح بغير الطريقة الاسلامية ، ويرتدي القبعة ، ولا يصلي حين يسافر الى أوربا ، أوعز بأن يعد هذا القرار مروقا من الدين . ومع ذلك فكرومر يؤيد عبده ، وهو وضع غريب .

٢٢ يناير

كان المفتي عندنا اليوم على غداء يوم الجمعة المعتاد في الحديقة تحت « تعريشة » الخيزران ، إنه يعاني قلقا جديدا بسبب وفاة أحد شيوخ الأزهر ، التي ستؤدي الى أزمة أخرى مع الخديو فيما يتعلق بمن يخلفه . ومن حسن الحظ أن سموه ، أو « فتانا » كما يسميه المفتي ، سيشرع في رحلة باتجاه حدود طرابلس (ليبيا) تريح منه الجميع قليلا . ويرجو المفتي أن يكون هو نفسه في الخرطوم عند ذاك . وقد وعدني بأن يبحث هناك حقيقة الشعور في السودان تجاه النظام الجديد (بعد إعادة فتح السودان على أيدي الانجليز واحتلالهم له)

تحدثنا طويلا ، في حديث طليٍّ ، حول أيام المماليك في مصر ، وحول أحوال اليهود في الجزيرة العربية قبل ظهور محمد (ص) ، وغير ذلك من أمور تاريخ الشرق التي يعلمها جيدا . ولست أعرف صحبة سارة ، أو صحبة تتحسن ، مثل صحبته ، وهي كل ما نملك هنا ، لأننا لا نرى أحدا من الأوربيين . فنحن في حالة عزلة الآن مع المسئولين الانجليز ، ولكن هذا لا يهم. وطالما ان مصر لم تضم للتاج البريطاني فسوف أمضي في معارضتي .

تحدث (عبده) أيضا حول ميول الخديو التجارية التي يمارسها دون اعتبار لوضعه السياسي . فهو يستأجر ويؤجر « المعديات » على الترع . ويحاول احتكار الصيد في مختلف الأماكن على حساب الفقراء . وقد لامه كرومر على ذلك . وقال له إنه يجب أن يختار بين كونه خديويا وكونه تاجرا ، وكرومر على حق في هذا . ولكن جميع أفراد أسرة محمد علي كانوا تجاراً مهرة . أما عباس ـ كما يقول عبده ـ فلا يهمه شيء سوى

---

(٦٠) راجع النص العربي للفتوى عند رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، المصدر نفسه ، ص ٦٧٦

جمع المال .

٤ فبراير

يقول محمد عبده إن جورست (السير إلدون جورست المراقب المالي والمنـدوب السامي فيما بعد) كان يساعد الخديو في الفترة الأخيرة في مضارباته المالية ، وإن هناك أقاويل بأنه سيترك الخدمة في مصر .

٦ـ النهاية : خسارة عامة للعالم الاسلامي

يستمـر بلنت في تسجيل يومياته على هذا النحو العفوي . وتستمر علاقته بمحمد عبده في توهجها ونضجها . يقول :

١٤ فبراير ١٩٠٤

تغـدى المفتي معنـا . وتحـدثنـا عن تاريخ مصر . وقال إن النظام المملوكي الشركسي في آخر مراحله كان فاسد الاساس منحل الأخلاق . ولكن هذه لم تكن حال المـاليـك الأوائـل الذين كانوا ـ أساسا ـ من العبيد . فقد جاء بهم صلاح الدين (الأيوبي) الى مصر . أما المماليك الأواخـر فلم يتفـوق عليهم أحد في جرائمهم ، بما في ذلك العثمانيون والفرنسيون أيضا . فقد كان يحلو لهم أن يختبروا سيوفهم في محلات السلاح على المارة ، فيقطعون رؤوسهم أو يشطرونهم نصفين عند الخصر .

كان محمد عبده ، وهو يروي هذه الحكايات ، يجلس على الأريكة ، وقد استقرت عمامته على رأسه ، وبدا كتركي رهيب يؤشر أثناء حديثه بسيف وهمي . كما روى حكمة سديدة للسيد جمال الدين يقول فيها : « العدالة توجد حيث تلتقي القوى المتكافئة » ، ومعناها أن الاستبداد لا يتوقف إلا إذا وقفت قوة المقاومة عند المحكوم في وجه قوة الحاكم . وهذه إشارة الى سلبية المصريين في ظل الباطل .

وثمة فضيحة جديدة في القاهرة . فقد دعا الخديو محظيته المجرية الى حفـل راقص بالقصر مما جعل زوجات القناصل يشعرن بالاساءة ، وفكرن في اثارة القضية على الملأ ، ولكن كرومر هدأ خواطرهن .

٢٩ فبراير

صحبت كوكريل (صديقه الذي جاء من انجلترا لزيارته في مصر) في زيارة للمفتي الذي وجدناه في الفراش مصابا بالأنفلونزا، ولكنه حدثنا بحكمته المعتادة . ولما تطرق الحديث الى الاقتراح الذي قدمه (الشيخ) علي يوسف (محرر صحيفة « المؤيد » الموالية للخديو) للجمعية الوطنية (البرلمان) وطالب فيه بانشاء حكومة برلمانية في مصر اعترضتُ على كلمة

« إنشاء » على أساس أن مصر عرفت الحكومة البرلمانية قبل ٢٢ سنة ، ولكن عبده قال إن إحياء الفكرة هنا اليوم مكيدة ، وإنه عارضها ـ دون جدوى ـ لأنها طرحت على التصويت ، ونالت أغلبية . وأعتقد أنه (عبده) كان على خطأ في هذا ، لأن البرلمان ـ سواء جاء بالمكيدة أو بغيرها ـ هو خير فرصة في مصر للتخلص من فرض الرأي الذي يمارسه الانجليز . وقد أعلن كرومر إن هذا الاقتراح ليس من اختصاص الجمعية (الوطنية) . ويقول عبده إن جورست (خليفة كرومر) يعاون الخديو بالتأكيد في مضارباته التجارية . وقد نشبت بينه وبين كرومر معركة حول هذا الموضوع . وليس من المتوقع أن يحتفظ (جورست) بوظيفته هنا كمستشار مالي .

(لم يحتفظ جورست طويلا بوظيفته هذه على أي حال ، فقد سافر الى أوربا قبل شهر تقريبا بحجة اقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على إلغاء « صندوق الدين » ، الذي أنشأته انجلترا وفرنسا في مصر لمراقبة المالية المصرية في أواخر عهد اسماعيل . ولكن الحكومة الفرنسية وافقت بعد بضعة أشهر (١٩٠٤) على اطلاق يد انجلترا في مصر ، مقابل اطلاق يد فرنسا في المغرب . أما السبب المباشر لمغادرة جورست مصر فكان خلافه الشديد مع كرومر . وقد روى بلنت في يومية ١٠ مارس ١٩٠٤ قصة هذا الخلاف أو ما سماه « المعركة » . وملخص القصة أن سيدة انجليزية صديقة لملك بريطانيا زارت مصر في شتاء ١٩٠٣ فلم تعجبها طريقة الاستقبال الفاتر الذي لاقته من زوجة كرومر ، في حين استقبلها جورست بالترحاب . وقيل إنها بدأت منذ تلك اللحظة في تدبير مكيدة لكرومر بالاشتراك مع جورست ، وتشجيع من الملك الذي شكت إليه السيدة . ومن هنا نبتت فكرة خلع كرومر ، وإحلال جورست محله . ثم تعقدت الأمور في غير مصلحة كرومر ، حين احتد على الخديو ، وخيّره ـ كما روى محمد عبده لبلنت ـ بين أن يكون خديويا أو تاجرا . وأسرّها الخديو في نفسه ، حتى زار انجلترا في صيف ١٩٠٣ ، وطلب عزل كرومر . ولكن المسئولين الانجليز فضلوا أن يعزلوه بطريقتهم الخاصة ، أي على مهل بعد أن تنضج الثمرة . فلما استعر الخلاف بين كرومر والخديو خيّر كرومر نفسه حكومته بين عزل الخديو أو قبول استقالته هو شخصيا . وكان جورست عند ذاك قد قوي مركزه بعد عودته الى انجلترا ، وأصبح

وكيلا للخارجية ، مع وعد بتعيينه سفيرا . وتخلصت الحكومة الانجليزية من ابن كرومـر ـ الذي أشيع أنه سيخلف أباه ـ بتعيينه في طهران . وهكذا ضيق على كرومر حتى يتصرف تبعا للموقف . ومع إزدياد خلافه مع الخديو انتهى الى تقديم استقالته ـ ظنا منه فيما يبدو أن الاستقالة ستسوى ـ فقبلت الاستقالة على الفور ، وكان ذلك في صيف ١٩٠٧ ، وعين جورست محله على الفور . ثم يكمل بلنت القصة :)

١٠ مارس

زرت المفتي في المسـاء . ورويت له القصة الكاملة لمعركة جورست وكرومر . فأنا لا أخفي عليه شيئا ، وكذلك هو . ولذا فنحن نعرف كل شيء فيما بيننا . وقد علق على ما رويته بأنه يتفق مع كل ما سمعه ، ولاحظه ، هو نفسه خلال العام الماضي . فقد حاول الخديو أثناء وجوده في لندن أن يفتح في وزارة الخارجية موضوع تقاعد كرومر ، ولكنه لم يجد ترحيبا . وخـلال هذا الشتـاء حدَّث كرومر عبده عن نفاد صبره مع جورست . وهكذا كان عبده على أتم استعداد لما رويته له . فهو يعرف كل شيء عن الدسائس المالية التي شجع جورست الخديو عليها ، ومنها على سبيل المثال سماحه للخديو بشراء أرض مريوط الشاسعة من الحكومة بمبلغ زهيد جدا . كما ساعده بطرق أخرى على جمع المال على حساب الحكومة تقريبا .

وقد طرب (المفتي) كثيرا عندما سمع دور السيدة (الانجليزية) في المكيدة . وقد سمع به من خلال صديق تصادف أن كان على ظهر الباخرة التي أقلت الخديو في الصيف الماضي الى القسطنطينية . فقد راح سموه يزهـو أمـام زملائه المسافرين بأن شخصية انجليزية كبيرة قد وعدت بالتخلص من الشيخ محمد عبده لأجل خاطره . وقد ناقش عبده هذه الواقعة مع صديقه مصطفى باشا فهمي (رئيس الوزراء)

(كان بلنت قد رتب القيـام برحلة الى الشام بعد أيام واقترح على صديقه محمد عبده مصاحبته ، ولكن الأخير اعتذر عن عدم الذهاب قبل أيام من بدء الرحلة)

١٥ مارس

زارنا المفتي اليوم . وتحدث عن ذهابه معنا الى دمشق ، ولكنه رأى

من الخير ألا يفعل ، وقال : « اذا سافرنا أنا وانت الى دمشق ، فسوف يغضب السلطان ، وسيظن أننا جئناها لاعلان الخلافة العربية »
(وسافر بلنت مع زوجته ثم عادا في ٣١ مارس)

٣ ابريل

عيد الفصح . تعشيت مع المفتي وناقشنا الشئون الاسلامية . وروى لي حكاية مسلية عن حادثة وقعت له أثناء منفاه في دمشق (يقصد بيروت) فقد كان بلندن في ذلك الوقت (١٨٨٣) قس (انجليزي) يدعى اسحق تيلور اعتنق فكرة اقامة اتحاد بين الكنيسة الانجليزية ـ بعد إصلاحها ـ والسلطة الدينية الاسلامية على أساس عقيدتهما المشتركة في التوحيد . وقد شجعه على ذلك ميرزا باقر الايراني (سكرتير بلنت سابقا) الذي حمل الفكرة الى سوريا ، وروج لها الى حد ما ، وحصل على عطف محمد عبده عليها . وكتب عبده رسالة الى تيلر وقعها بامضائه مع اثنين من كبار علماء دمشق . وسر تيلور بالطبع ، ونشر الرسالة في الحال بصفتها تعبر عن الرأي العام لعلماء المسلمين في دمشق ، ورتب عليها أن الاتحاد بين المسيحيين والمسلمين على وشك التحقق . وبلغ ذلك مسامع السلطان . ومع أن الرسالة المنشورة لم تحمل أي إسم لأحد من كتابها فقد تلقى السفير التركي في لندن تلغرافا على الفور ، وأمر بالبحث عن أسماء الموقعين الخمسة . وقام تيلور دون إدراك للخطر باطلاع السفير على الأسماء ، فصدر أمر بنفي الخمسة جميعا من سوريا . ومع ذلك احتج عبده قبل مغادرته دمشق . وأتيحت له فرصة مناقشة ما حدث مع السلطات ، ففهم أن سر انزعاج السلطان يرجع الى ظنه أن انجلترا اذا تحولت الى الاسلام فلا بد أن يدخل العاهل الانجليزي الاسلام بناء على هذا ، وبذلك يصبح أقوى شخصية في ديار الاسلام ، وتنتقل الخلافة على نحو طبيعي الى الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا في ذلك الوقت) برغم أنف التعصب العثماني للخلافة ذاتها .

١٠ ابريل

غادرنا الشيخ عبيد الى انجلترا . وقد ودعت محمد عبده أمس . كان قد كتب رسالة الى تولستوي (الأديب والمصلح الروسي) ترجمتها آن الى

الانجليـزية (نشرها بلنت في ملاحق هذا الجزء الأخير من اليوميات)
وصلت أخبار الاتفاق الانجليزي الفرنسي (المسمى « الاتفاق الودي »)
على مراكش (المغـرب) ومصر . وكنت أتـوقعـه منـذ زمن طويل . أما
بالنسبة لمصر فالشروط أكثر إجحافا ، لأنها لم تمس الحالة السياسية .
ولكنه سيكون يوما تعيسا على مراكش . وأما هنا فسوف يندفع الناس الى
التخمـين . وقد روى لي عبده تفاصيل قطعة الألف فدان التي منحت
امتيازا لكاسل (صديق ملك بريطانيا وشريك الخديو ومقرضه المال)
(في ٧ يونيـو تأكـد بلنت وهـو في لندن من أخبار خلافة جورست
لكـرومـر ، وكتب في يوميـاتـه إنـه أرسل الى محمد عبده خطابا حول
الموضوع ، وضمنه أخبارا عن احتمال تغيير النظام في مصر ، بعد تولي
جورست . وفي ١١ نوفمبر عاد بلنت الى مصر ، ووصل داره في ٢٨ نوفمبر
وكتب :)

٢٨ نوفمبر

روى لي عبده خلاصة لكل ما حدث خلال الصيف . وكانت الحادثة
الرئيسيـة هي مغـامـرة الشيـخ علي يوسف التي تورط فيها الخديو .
فالخديو ، منذ زيارته الأولى للندن ، وتعرفه الى مليكنا ، قد مال إلى حياة
اللهو مع النساء السيئات السمعة ، وأحاط نفسه برفاق السوء . ودخل
في هؤلاء الشيخ علي يوسف الذي كانت علاقته بالبلاط أدبية في الأصل ،
ولكنه أصبح سميراً وانضم الى بطانة السوء . ومع أنه لم يعد شاباً فقد
تصـابى في صحبة الخديو . وكان الأخير يجلّ من النساء ابنة الشيخ
السادات التي منعها أبوها من الزواج بدافع الارتزاق من ورائها ، مع
أنها الآن في السابعة والعشرين . وكان مركزه كشيخ (نقيب) لأشراف
المسلمين يتيح له فرض هدايا غالية على طالبي يدها ، الذين لا يلبث أن
يرفضهم بعد ذلك . ولكن الفتاة ثارت على تأخر الإذن لها بالزواج . وعن
طريق الشيخ البكري الذي تزوج شقيقتها الكبرى تعرف اليها الخديو ،
ثم رشحها زوجة لعلي يوسف . فتقدم الأخير طالبا يدها بمساندة عباس ،
ولكن المـوضـوع انتهى باللعبـة القديمة ، التي تبدأ بالهدايا وتنتهي
بتـأجيل الزواج . وسئم علي يوسف الموقف فدبر مع البكري أن تهرب
الفتـاة معه . وهروب الفتيات الآن أمر لم يسمع به أحد في الاسلام ،

فضلا عن أنه يحمل طابع السرقة ، مثله مثل سرقة ابنة أحد الرجال دون دفع المهر المعتاد .

وقد شاع أمر الفضيحة التي تسبب فيها علي يوسف ، واتسع نطاقها في كل مكان . ولم يخفف منها أن اللورد كرومر قرر في النهاية وضع حد للنزاع ، فنصح الفتاة بالعودة الى أبويها . ويقول محمد عبده ان وضع الخديو في القسطنطينية وضع من استخدمه السلطان للتجسس لحسابه على ما يجري في مصر . ولذلك فقد شعبيته .

١٠ يناير ١٩٠٥

جلست أمس لمدة ساعة في الحديقة مع المفتي . وكان بصحبته رجل يدعى محمد بك طلعت حرب ، في غاية الذكاء ، يقوم بكتابة تاريخ العرب ابتداء من محمد (ص) الى اليوم ... حاول الخديو في الفترة الأخيرة أن يحسن علاقته بمحمد عبده .

٢١ يناير

ذهب محمد عبده الى السودان للنظر في مختلف الأمور المتعلقة بمصالح المسلمين .

١٩ فبراير

عاد محمد عبده من الخرطوم سعيدا بما رآه هناك . ويقول ان الحكم يدار بطريقة أفضل مما في مصر ، وإن الناس راضون ، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة الرقيق ، وان التعليم معقول في الكلية (كلية جوردون) ، وإن قانون العقوبات السوداني أبسط وأفضل من نظيره المصري . ويرى أن حكم ونجت (الجنرال سير ريجنالد ونجت حاكم السودان) يتميز بالاعتدال . وهناك مشاعر طيبة بين الانجليز والسودانيين .

(كان بلنت قد مرض بالحمى في ديسمبر ١٩٠٤ ، واشتدت عليه فترة طويلة . ولم يجد مفرا في النهاية من العودة الى انجلترا)

١٧ مارس

غادرت الشيخ عبيد في الصباح . ويبدو لي أن هذه المغادرة ستكون

إلى الأبـد . إن المكـان عزيز على نفسي جدا بشمسه الساطعة دائما ، وحيواناته المفترسة وطيوره . يا ويلي ! من سيرعى هذا كله حين أذهب ؟ لقد جاء عبده لتوديعي بمحطة القاهرة . وظللنا نتحدث حتى آخر دقيقة ، وكـل منـا يودع صاحبـه وداعا حزينا [وحين افترقنا لم يخطر لي على الاطلاق أني سأراه مرة أخرى . ولكني لم أمت ، وانما مات هو خلال السنة]

(لقد جاء بلنت الى لندن للعلاج من الحمى وآلامها المبرحة . وحين مات صديقه كان هو يكاد يكون غائبا عن وعيه بسبب الحمى المتجددة . بل انه انقطع عن تسجيل يومياته حتى ٢٨ يوليو ، أي بعد أيام من وفاة صاحبه في الاسكندرية ، بعد مرض لم يمهله طويلا . وحين وصل خبر الوفاة الى صاحبه بلنت نهض الى يومياته وكتب :)

٢٨ يوليو

إن الخطب العظيم الذي يعلو على سواه هو أن محمد عبده مات ! إنها خسارة شخصية فظيعة بالنسبة لي ، وخسارة عامة لا يمكن حصرها البتة بالنسبة للعالم الاسلامي . ولا نستطيع أن نغالب الخوف من أن يكون في الأمـر شيء . فالوفـاة كانت مفـاجئـة للغـايـة ، والمفتي كان له أعداء سياسيون كثيرون .

(لبث بلنت ، بعد ذلك ، يسأل كل من لاقاه في انجلترا من المصريين عن سر وفاة صديقه ، وما إذا كان قد أهمل علاجه ، أو دس له السم . وحين انتهى ذلك العام كتب ينعى صديقه والزمن مرة أخرى :)

٣١ ديسمبر ١٩٠٥

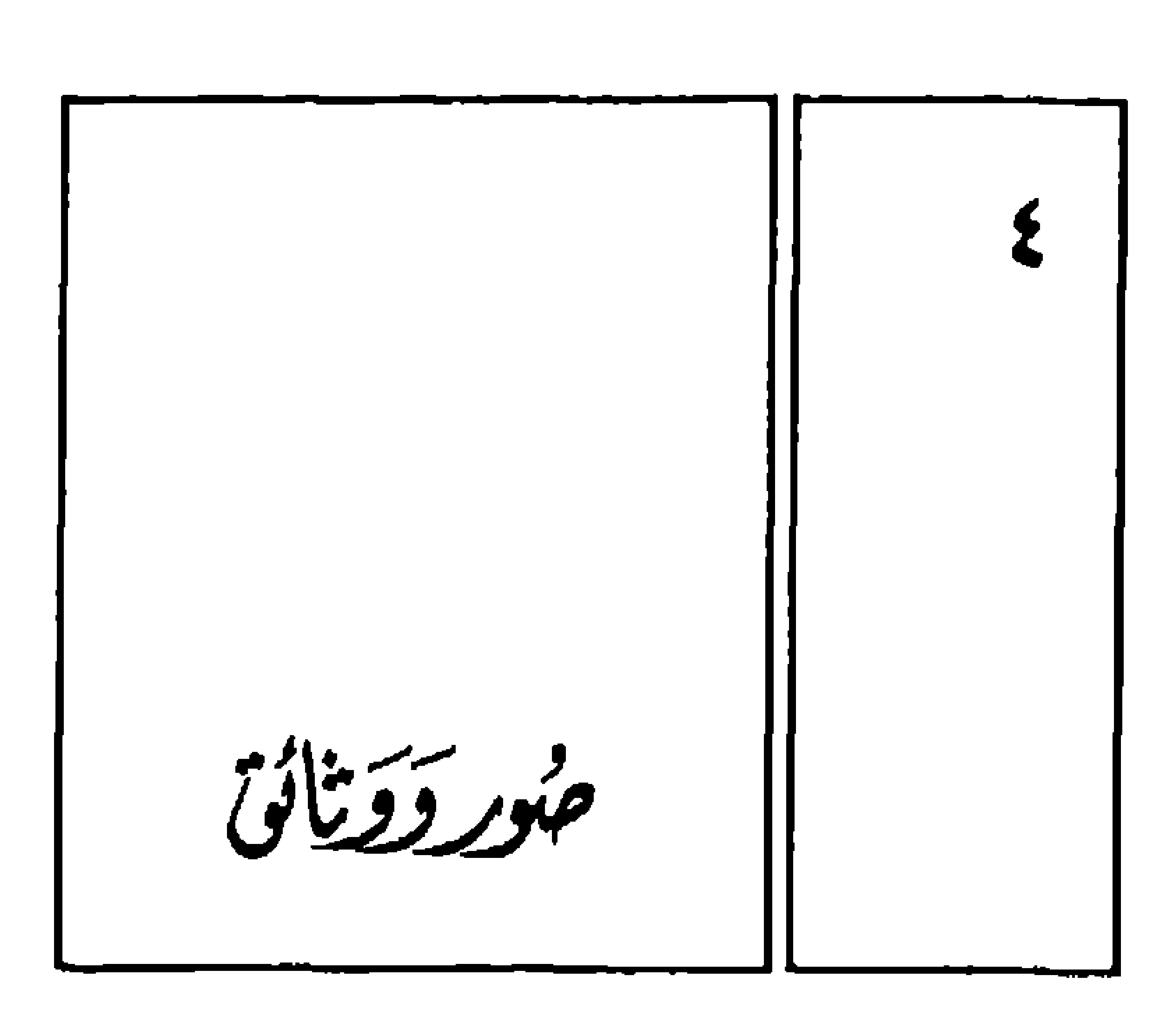
حين أنظر الى العام الماضي أراه يتمثل لي عاما فظيعا . ولكنه جاءني بكثير من ألوان التعزية . فخلال الأسابيع الستة الأخيرة قابلت في لندن عددا من الأصـدقـاء أكبر من عدد الذين قابلتهم في السنوات الست الماضية . لقد توقفت عن إزعاج نفسي بالشئون العامة . ولن أعود مرة أخرى الى مصر ، بعد أن مات المفتي ، بل لا أظن أنني سأعبر القنال (الانجليزي)

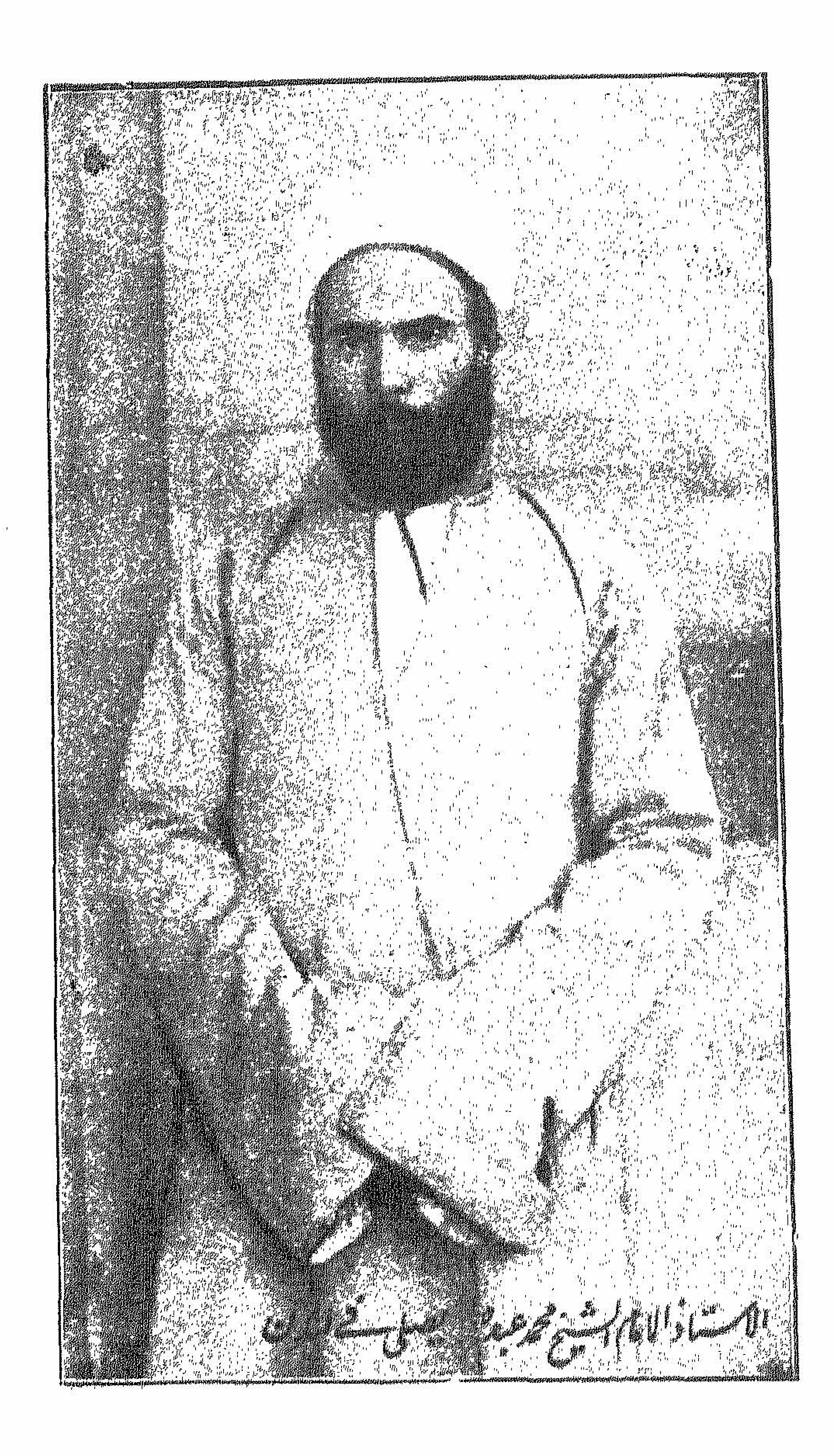
(ثم أبدى بلنت رغبته في قضاء ما تبقى من عمره ـ بعد شفائه ـ في

انجلترا بين زوجته وأصدقائه وابنته الوحيدة وحفيديه . ولم يعد الى مصر بعدها ، ولم يعبر القنال الانجليزي أيضا . ولكنه ظل على اتصال بأحوال مصر من خلال زعماء الحركة الوطنية وأنصارها الذين كانوا يترددون على لندن ، ويزورونه في بيته ، مثل مصطفى كامل ومحمد فريد ، وطلاب الجامعات الانجليزية الوطنيين مثل عبد السلام جمعة ، وأحمد عبد الغفار ، وسواهما ممن كانوا يدرسون في لندن وأكسفورد . وما لبث أن باع بيته وحديقته في مصر (الشيخ عبيد) . وعاش حياة هادئة حتى توفي ، عن ٨٢ عاما ، سنة ١٩٢٢)

ونستطيع ـ بعد هذا كله ـ أن نستخلص من كتابات بلنت ويومياته صورة لما كان عليه محمد عبده في شبابه وكهولته وشيخوخته . فهو في مرحلة الثورة العرابية مثقف وطني مستنير حريص على الاصلاح والدستور والحكم النيابي . وهو في مرحلة المنفى بالشام وأوربا مجاهد وطني بالكلمة والموقف ، معاد للاحتلال الانجليزي والاستبداد المحلي . وهو في مرحلة العودة رجل واقعي معتدل الفكر والرأي ، لم يفقد حماسه للحكم النيابي بالرغم من فكرته عن « المستبد العادل » التي كانت تحوم في ذهنه وكتاباته من حين لآخر . ويلي ذلك بُعْدٌ شخصي للصورة التي كان عليها ، ويتمثل هذا البعد في وفائه الواضح لأصدقائه ، وقدرته على مغفرة اخطائهم ، فهو وفي لمصطفى رياض رئيس الوزراء حتى مع استبداده ، يلتمس له الأعذار ويدافع عنه ، بالرغم من نقده له أحيانا . ولكن هذه المرحلة في حياته ربما أبرزت بعدا آخر شخصيا في صورته ، ويتمثل هنا في ميله الى اتقاء الشرور وتجنب العواصف ، واحتماله دسائس الخديو .

ومن الواضح أن هذه الكتابات واليوميات قد ألقت الكثير من الأضواء على هذه الجوانب الموضوعية والشخصية في صورة محمد عبده ، كما ألقت أضواء كثيرة أيضا على عصره ورجاله ، مثل عرابي ، وعباس ، وكرومر ، واسماعيل صديق ، ومدحت باشا التركي زعيم حركة الدستوريين ، وطلعت حرب ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد رشيد رضا ، وعلي يوسف ، وغيرهم من شخصيات ذلك العصر . وفيها ، بعد هذا كله ، أضواء على تاريخنا الحديث ، وتاريخ محمد عبده نفسه ، الذي لم يكتب حتى الآن بشكل علمي موثق .


٤
صور ووثائق



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

الصفحتان الاولى والثانية من الرسالة الاولى
من بيروت سنة ١٨٨٣

مولاى المعظم حفظه الله وايد مقاصده

ليتنى كنت اعلم ماذا اكتب اليك وانت تعلم ما فى نفسى كما تعلم ما فى نفسك صنعتنا بيديك وافضت على موادنا صورها الكمالية وانشأتنا فى احسن تقويم فبك عرفنا انفسنا وبك عرفناك وبك عرفنا العالم اجمعين فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب وهو علمك بذاتك وثقتك بقدرتك وارادتك فعنك صدرنا واليك اليك المآب

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول وأتصرف بها فى خواطر النفوس ومنحت منك عزمة أثبت بها الثوابت وأذل بها شوامخ الصعاب وأصدع بها صم المشاكل وأثبت بها فى الحق للحق حتى يرضى الحق وكنت أظن قدرتى بقدرتك غير محدودة ومكنتى ومنبوتتى ولا معدودة فاذا أنا من الايام كل يوم فى شأن جديد تناولت القلم لأقدم اليك من روحى ما انت به اعلم فلم اجد من نفسى سوى الأفكل وتقلقل العبد المرتعش والخواطر المتبددة والافكار الذاهب والعقل الغائب كأنك يا مولاى مكنتنى نوع القدرة ليدلك على قوة سلطانك وحصرته فى الافراد فاستثنيت منه ما يتعلق به بالخطاب معك والتقدم الى مقامك الجليل هذا مع املى انى منك فى ثلاث ارواح لو خلت احداها فى العالم بأسره وكان جمادا لعاد انسانا كاملا فصورتك الظاهرة تمثلت فى قوتى الخيالية وامتد سلطانها على حسى المشترك وهى رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال فانها زينت جميع محسوساتى وذهبت بجامع مشهوداتى وروح حكمتك التى احييت بها مواتنا وأنرت بها عقولنا ولطفت بها نفوسنا بل التى تطفت بها فينا فظهرت فى أشخاصنا فكنا أعدادك وانت الواحد وغيبك وأنت الشاهد وروحك القدسى الذى أقمته فى قبلة صلاتى رقيبا على ما أقدم من اعمالى ومسيطرا علىّ فى احوالى وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ولا قصدت الى غاية ولا انتهيت عن نهاية حتى تطابق فى على احكام

ادرككت وعلمته انه قصيت على حلها سعيا في الخير واعلاء لكلمة الحق وتاييدا لشوكة الحاكمة
وسلطان الفضيلة ولست في ذلك الا آلة لتنفيذ الراى المثلى وما لي من حول في ارادة
حتى ينقلب مريعا

غير ان قواي العالية تخلت عنى في مكاتبتي اليك وحلت بيني وبين نفسي التزاما لحكم ان المملول
لا يعود على علته بالتاثير على ان ما يكون الى المولى من رقائم عبده ليس الا نوعا من التضرع
والابتهال او اخف فيه ما يكشف غما او يزيد جاها ومع ذلك فاني لا اتوسل اليك في
العفو عما تجده من قلق العبارة ودمامة ما تجافى سنن البلاغة بشفيع اقوى من عجز العقل
عن ادراك نظره اليك واطراق الفكر خشية منك بين يديك واى شفيع اقوى من رحمتك بالضعفاء
وحنوك بالمغلوبين جميعا

اني لا احدثك يا مولاي عن شيء مما اصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيانه اخي في صحبتكم ابراهيم
افندي اللقاني سوى بعض ما ذكره في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول
احوالهم بعد نزول ما نزل بك فقد تغلب اعوان الشر وانصار السوء عقب جلائك بقوة
جاههم وشدة باسهم فارغموا العقول على الاعتقاد بالمحال والجاءوها للتصديق بما لا يقال
حتى انهم حيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى الله مذ تلك العبارة بين اياما معدودة ذكي
فيها الى الحمل بالشدة والاخذ بالبادرة الحدة ولم يلبث ان وصلت اليه بعد ما كانوا يجدوا اعلى في
بلدي وحظروا على الدخول في المدينة نحو اربعة اشهر نفيا والتقى برياض باشا جلوت عليه الامر
وكشفت له من الحقيقة ما خفي حتى زال ما لبس المبطلون وبطل كيدهم وما كانوا يبتغون وانزلني
عنده منزلة خصني عليها الكافة من العلماء والامراء ورجال الحكومة بل وكثير ممن كان يدعي الانتماء
الى حضرة مولانا المعظم وتقدمت من كل ما يتضعضع النفس فلا ينطق الا بما تريد جلالتك
ولا يميل الا مع ما ارادتك فانك وحقك كنت ولا ازال في الهند بين اظهر المعربين ساعيا فيهم
الى مقاصدك العالية طالبا بهم اوج السعادة وذروة المجد والفخار
ولهذا جمعت الى كل من كان ينتسب اليك صادقا في ان تتساب اولا زبا تحسينا للظن وايثار للجانب

العفو والكرم لهذا الشأن لم آل جهداً في مساعدة ادركت ان شقيقي الى دنيا اديب اسحق وسليم النقاش
وسعيد البستاني واللبابيدي وغيرهم كلهم من الشام فاصلحت لهم القلوب وفتحت لهم من الصدور
وفتحت عليهم ابواب التقدم الى المنافع الوزيرية لكنهم لم يرعوا عهداً ولم يحفظوا وداً ولا حاجة لي الآن
الى ايضاح ما صدر منهم خيانة ولؤماً فانا مولاي اعلم بجميع الشوام (الا بعض الاعزة) وجميعهم من اصطبل واحد)
واتقت بجنابك ممن خرج من الشرذمة ملتفاً بك فتبينه ليس بالقليل يجلونك قدرك ويعرفون لك فضلك

الصفحة الاخيرة من الرسالة الاولى

وانا اعلم من نفسي وما اتيقنه من نيتك وما ايده انما لي واعمالك واقوالك لا انكر
ما اشرت اليه في كتابك الى تراب حيث طعنت به في نيتك بالمصريين وبالغت حتى سمعت الطعن
الى طاومك كاتب الاحرف وابراهيم افندي وزدت في المبالغة فانقدت طعنتك بالداهية الزرقاء
والبلية الحمراء اما انك نيتك بالدواهي والبلايا فقد صار من كل حقد نتحقق نهدك وما لفعت عن ذكره
فانتبهت في الوجود وانت موجود ارغم اسمه انفها وجعلها طوع يدك تراها بما من تشاء من اعدائك
اما ما تعلقت بنا فاني على بينة من امر مولاي وان كان في توقيعاته ما يشكك الملائكة في معبودهم والانبياء
في دينهم ونحلهم ولكن ليس في استطاعته ان يشكك نفسه في نفسه ولا ان يمنع عقله الشفقي بالحالتين وان
كان في طوعه ان يمنع رجال من اراد من الشرقيين والغربيين وما حكم به سيدي من سلب الحرية عن المصريين
ربما تغافر عليه الادراك وتشهد لنا وله عليه حوادث عمرانها لنا اولئك فقد افرحنا المولى
عن طباعنا وانبتنا نباتا حسنا غير نبات يتغذى بغذاء اهل الارض ولا يتجوهر بهوائها وانما ينفر حيث
يتيح له القدر من مثل عناصره ما يتغذى به قوامه ويزهرها ويحلو ثمره والا ذبل وما تناول استوصلت
جذوره ورمي به الى خارج البلاد واني اعلم انا كلانا لا يزيد في يقين مولاي شيئا وسكوتي لا ينقص منه
فلنقعد عن هذا ونستمنح من كرمه الواسع ان يمن علينا بامرين احدهما ارسال رسمه الفوتوغرافي
الجديد فان هذا الخادم كان عنده نسختان من الفوتوغرافية الاولى احدهما اخذها اعوان الضبطية
من بيتي عندما اودعت السجن كما اخذوا كتبا بالماسونية بخط مولاي كالمقطم والثانية كان استهداها سعد
افندي زغلول وهو من خواص محبي سيدكم ولتعلقه عليه زكرا لم يتيسر لي اعادتها والثاني ان يتابع
ارسال ما ينشره من فصول السياسية والادبية في الجرائد انا كانت فقد اعددنا دفاتر متعددة
نقطعها بوجد فيها في اي جريدة وكتبنا ما نشر في جريدة النحلة والرجال دوج في البصير والان نبحث
عن مقالة المشرق والشرقيين ولا نجدها واضفنا الى ذلك ما كان نشر في جريدة مصر في الايام
السابقة ما جمع الجمل التي جاد بها فكر سيادتكم ثم انا نخبر سيادتكم بخبر اسررنا به وهو ان
اعيان المسلمين من اهالي بيروت والامراء لما بلغهم في اكرامنا والاحتفاء بنا ونخص بالذكر منهم
السيد عبد القادر افندي القباني واعضاء عائلته وهم من ذوي البيوت الرفيعة رغما عن انف صاحب
الجوائب والحاج محيي الدين افندي حماده رئيس مجلس البلدية وحسن افندي بيهم وهم من انبه

الشبان وأعلمهم وأكتبهم وأشدهم ميلا إلى الحرية وقد آلى على نفسه أنه لا يموت حتى يراكم ما لم يفاجأ

وأما أن يتشرف السيد عبد القادر الجزائري فقد أمر ولده أن يزور خادمكم هذا وأن الزيارتين وما كل هذا إلا

من آثار فضلكم فلكم الشكر على كل نعمة وصلت أو تصل إلينا وإلى أعقابنا من بعدنا ونرجو من سعة كرمكم

أن تمنوا على خادمكم بأسطر من خطكم الشريف يحفظها حيث يحفظ سركم ويودعها كالمستودع حبك وأسمه

يحفظ أو يتم تعاهد سركم والسلام

خادمكم

محمد عبده

٥ جمادى الأولى

الصفحة الاولى من الرسالة الثانية

مولاي المعظم ايده الله

اليوم عرفت نفسي وكنت بها سيء الظن ارى ما سبق الي ادبيا من الكرامة بين الناس انما هو
من احكام البخت واتفاق وعزوتها من السذج بنسبتي الى خدمة المولى الجليل وكنت اتيه على
العالمين بتلك النسبة وهي عنوان الفضل والكمال مكتفيا برسوخها في نفسي وتقررها في
الاذهان واقول دعوا الناس في غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض اما الآن وقد جنيت
المهاب العالي نتيجة لاعماله فاني اصدع بافكاري قواعد الملكوت وازعزع بهمتي اركان سطوة
الجبروت وادعو الى الحق دعوة الحكيم واذهب باهل الرحمة مذهب الاب الرحيم خدمة لمقاصد
مولاي وانا يوم السعادة عندكم ان يظهر لهذه الخدمة اثر او ينشر عنها خبر اما انى أسيء لعبده عن
علم المعتوق في الحقوق التي اوجبها التراجم الزكية فمن حيث صدوره عنه او بسبب تجربته بما يبيح تحيز ذكره
ولكن من حيث توجهه الى خادم الدين فهو من قبيل تلاحق عن ان يكون باطلا والشرع عن ان يكون ظالما
والكمال عن ان يكون نقصا بل لاني اوف لا حق ان يكون جارا سبحان الله ما اسهل ان نتكلم وايسر ان
نذهب به حتى يبلغ الكتاب اجله بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في الدبا من دفاعكم عن الدين
الاسلامي بالبرهان مدافعة رد على موسيو رنان فظننا هاهنا الدعايات الدينية تحل عند المؤمنين
محل القبول فحثثنا بعض الدينيين على ترجمتها لكما وجدنا الله تعالى اذ لم يتيسر لوجود اعداد الدبا حتى ورد
كتابكم واطلعنا على العددين ترجمها لنا حضرة الفاضل حسن افندي بيهم فعرفنا ذهب صاحب
الدول عن ترجمتها وتوسطنا في ذلك بأن وعدناه ان الاصل العربي سيحضر فان حضر نشر
ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه ويحمد مه ثم اتى ما على شتتك القومية : لا تقطع راس الدين

الصفحة الاخيرة من رسالة محمد عبده الثانية

وانا في حبس الحكومة المصرية قبل ان يراني كان متعلقا [illegible] مع اني ما رأيته [illegible]
من نحو [illegible] ثم بعد ما كتبت اليكم ما كتب جاء لزيارتي في الحبس وطلب [illegible] شيئا يتعلق
بسيادتكم واظن انها حالة [illegible] والتي يكون من هذا القبيل لا يخفى على [illegible] سيادتكم
فالرجا ان لا تعتمدوا عليها ولا تعجلوا [illegible] اليكم ان
يشعروا [illegible] خاطركم من جهتهم [illegible] وان كان غير منطبق على الواقع ونلتمس من مكارم
كرمكم ان لا تقطعوا عنا [illegible] والله يحفظكم

في [illegible] شعبان سنة [illegible] محمد عبده

يهدي سيادتكم مزيد السلام ويقبل ايديكم ابراهيم افندي [illegible] والشيخ [illegible]
[illegible] والشيخ [illegible] من [illegible]
[illegible] افندي [illegible] في [illegible] محمد

رسالة الى حفني ناصف

عزيزي

تسمح لي في مكاتبتك ونطمع ان نسمع لك في جوابك فانك ما تستطيع ان تثبت على السجع حتى لو

ساقك اليه الطبع فانه الصنع بك وقد نقضت من بنائك . اعاد الى كتابك وجدانا

بالانا وجدد في نفس ايام العلم والقضايا كرم [illegible] مع المعهود والى هذه

الى اليوم حتى كانك تنتقل حسب طلبك وكانما انتقل الى ذلك الى لكن طالما تذكرت مثلا نهار

وقرب وقت الانتظار والتجأ الى الدار من مشاهدة اهل النار وتلك الذنوب والاوزار

قلت القلق قرقار فكان بالماء وقد جفت والطعام يشبه على الاثار فابكت الورق

ونعقت الطرق واستلت السيوف وفزت العيون ونابها السكون تجدد اسف لك على الشيخ

رسالة انه يعيشك البدع من اطالة السهر وقتل الليل بالسمر الى وقت السحر فذلك نهاية

للبدن مجلبة للوهن مضيعة لنفيس الزمن مطفئ لنور العقل وفاكهة عذب الحق

ثم قدم على التحويل وقبض مبلغ الفا ثمانية قرش وسير الى الكيس سنة الحساب

وسلامي عليك وعلى السيد احمد رافع زغلول

محمد عبده

[illegible]

بيروت ٩ [illegible]

مصادر الكتاب

١ـ جريدة ابو نظارة:

جريدة التجارة. الاسكندرية. العدد ١٣، ٣ يونيو ١٩٧٩، ص ٢

٢ـ الحق المر:

مجلة ضياء الخافقين. لندن. العدد ٣، ابريل ١٨٩٢، ص ص ٣٥ ـ ٣٨

٣ـ الدين النصيحة:

ما هنالك، تاليف ابراهيم المويلحي، تحقيق احمد حسين الطماوي، المركز العربي للاعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٦، ص ص ٧٣ ـ ٧٨

٤ـ رسالتان الى جمال الدين الافغاني:

اسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين. تحقيق إيراج افشار واصغر مهدوي، مطبوعات جامعة طهران، طهران، تصوير ١٣٤ ـ ١٤٠

٥ـ اربع رسائل الى ويلفرد بلنت:

The Secret History of The English Occupation of Egypt,

2nd edition, London 1907, PP 250-254

Gordon at Khartoum, London 1911, PP551-555

٦ـ رسالة الى حفني ناصف:

مجلة الهلال، القاهرة، فبراير ١٩٣٣، تحقيق بعنوان «ادب المراسلة في الجيل الماضي، ص ص ٥٤٩ ـ ٤٥٦.

٧ـ حديث الى صحيفة انجليزية:

Gordon at Khartoum, PP 622-626

٨ـ ذكريات مع ويلفرد بلنت:

نظرا لكثرة عدد الصفحات التي تضمنت الاشارة الى محمد عبده ففي كتب بلنت الاربعة: التاريخ السري للاحتلال الانجليزي لمصر، جوردون في الخرطوم، الهند في عهد ريبون، يومياتي، فليس من السهل اثبات ارقام الصفحات هنا، ولا سيما ان الذكريات تحتل جانبا لا باس به من يوميات بلنت بصفة خاصة.

علي شلش

- ولد في مصر عام ١٩٣٥
- ليسانس وماجستير ودكتوراه في الصحافة والاعلام.
- له اكثر من ٢٠ كتابا في الادب والنقد وتاريخ الصحافة والفكر العربي.
- قام بالتدريس في بعض الجامعات العربية والاوربية والامريكية.
- يساهم بنشاط بارز في كثير من وسائل الاعلام والمؤتمرات العربية والدولية.

£ 9.00 net
in UK only

هذا الكتاب

بالرغم من ظهور أعمال محمد عبده وتراثه في خمسة مجلدات، فان المجهول منها كثير. وهذا ما يضمه المجلد الحالي لأول مرة، نقلا عن بعض الصحف العربية ومؤلفات ويلفرد بلنت المؤرخ والمستشرق الانجليزي الذي ربطته بمحمد عبده صداقة متينة طويلة.

ونرجو ان يسد هذا المجلد فراغا محسوسا في المكتبة العربية، وأن يكمل ما ظهر من تراث الرجل.

ISBN 1 869844 66 1